
روايات الهلال
جون شتاينبك
الوادى الأخضر

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٣٧ ـ سبتمبر ١٩٦٨ ـ جمادى الاخرة ١٣٨٨

No. 237 - Septembre 1968

رئيس التحرير
كامل زهيري

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم ـ عن الكميات المرسلة بالطائرة ـ فى سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ؛ فى الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحاد البريد العربي والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر انحاء العالم ٥ ونصف دولارات او ٤٠ شلنا والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل او بشيك مصرفى قابل الصرف فى « ج.ع.م » ـ والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

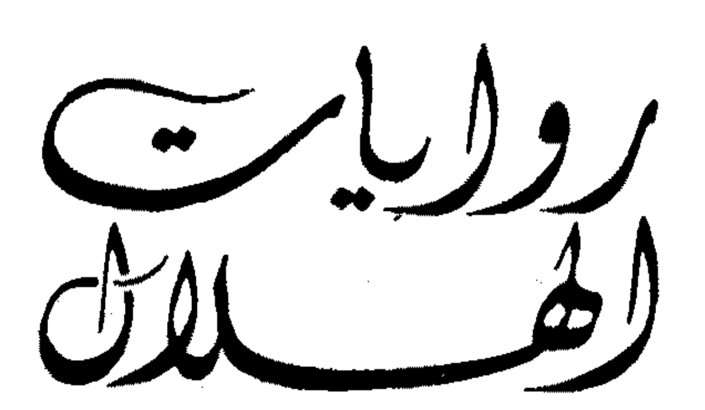
سعر البيع للجمهور

البحرين : ٢٠٠ فلس بحريني ، الدوحة : ٢٠٠ نيابيزة ، عدن : ٢٨٠ سنتا ، السودان : ١١٠ مليمات ، ليبيا : ١٤٠ مليما ، الجزائر : ٢٢٠ سنتيما ، اثيوبيا : ١٢٠ سنتا

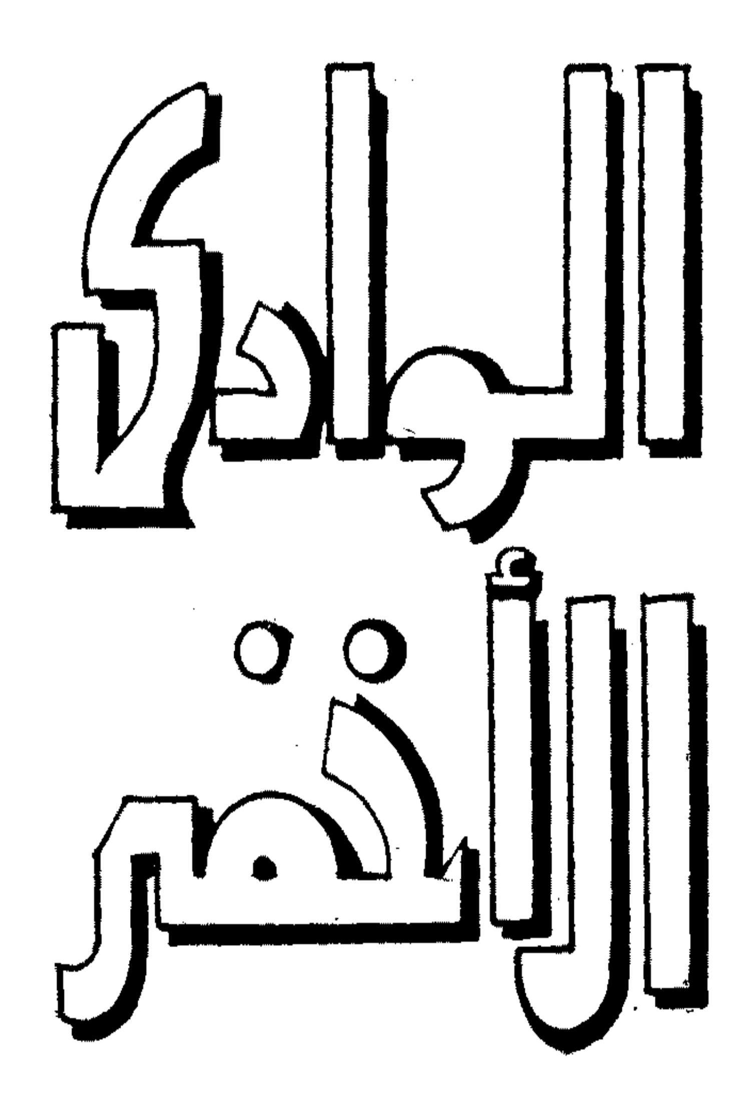
الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة

تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

الغلاف بريشة الفنان جمال كامل



مجلة شهرية لنشر القصص العالمى



بقلم

جون شتاينبك

دار الهلال

الفصل الأول

عندما يزول سوء الطالع

عندما تمت بنايات ارسالية رهبان الكارملو بمدينة آلتا بولاية كاليفورنيا فى عام ١٧٧٦ ، هربت جماعة من الهنـــود المنتصرين يبلغ عددها عشرين هنديا وانطلقت ـ تاركة وراءها أكواخها وفيهـا الجديد ، فى سكون الليل ، حتى اذا تبلج الفجر لم يكن لهم أثر فى المنطقة كلها • ورأى الرهبان ان ما حدث يعتبر قدوة سيئة لباقى الهنود المتنصرين ، كما أنه سيعطل العمل فى القمائن التى تصنع منها قوالب الطوب اللازمة للبناء

وبعد أن عقد مجلس للمشاورة فى هذا الامر بين السلطات الدينية والسلطات المدنيـــة ، تقدم ضـــابط اسبانى مع سرية من الشرطة الخيالة ، للبحث عن الهنود الآبقين والعـــودة بهم الى حظيرة الدين وقمائن صنع الطوب

وقامت الحملة الصغيرة برحلة شاقة عبر وادى الكارملو ، ثم الى الجبال الواقعة وراءها ؟ وقد ازدادت المشقة على جنـود الحملة لان الآبقين كانوا بارعين الى حد كبير فى اختفـــاء آثار فرارهم حتى عن الأعين الخبيرة لقصاصى الاثر

وبعد أسبوع عثر جنود الحملة على الهنود الابقين مستغرقين فى سكرة الخمر بعد أن أسرفوا فى شربها .. وكانوا راقدين على ضفة جدول صغير فى خور جبلى مكسو بنبات السرطس

وأمسك الجنود بالهنود الآثمين وقيدوهم فى ســـــلسلة طويلة

ومضوا بهم عائدين عبر جبال الكارملو ، ليتيحوا لهم فرصة التوبة وفرصة العودة الى العمل فى قمائن الطوب

وفى ساعة متأخرة من أصيل اليوم التالى ، لمح الضابط الشاب غزالا صغيرا يندفع مختفيا وراء جوف جبلى ، فترك رجاله وانطلق وراءه يبغى اقتناصه . وانحدر بجواده فى سرعة بالغة على جانب الجبل ، وتعثر الجواد وامتدت أصابع النبات الشوكى الى وجه الضابط الشاب ، ولكنه استطاع ان يدفع جواده وراء الغزال الصغير . وبعد لحظات وصل الى قمة الجرف الجبلى . وهناك توقف مذهولا لما رأى .. لقد رأى واديا طويلا مكسو القاع بالعشب النضير والاشجار الباسقة والضفاف الخضر التى يمر بها نهر صغير . وكان ثمة قطيع من الغزلان قد اجتمع للشرب من النهر

ووقف الضابط الغليظ القلب الذى طالما ألهب ظهور الاسرى بالسياط ، وقف أمام هذا المنظر الرائع مذهولا .. وأخيرا ترجل عن جواده ، ورفع خوذته عن رأسه ، ثم هتف :

ــ يا اله السماء .. هذه هى جنة السماء التى قادنى القدر اليها

ومع مرور الاجيال ، أصبح أفراد سلالته ، نساء ورجالا ، فى حكم الجنس الابيض . ولكن الاسم الذى أطلق على الوادى ، وعلى التلال الخضراء المحيطة به ، ظل كما هو .. جنة السماء !

وبعد وفاة الضابط الشاب ، الذى تزوج احدى الهنديات ، تقدمت بعض الاسر الهندية وبعض المهاجرين ، الى الوادى ، فاستعمروه ، واختلطت دماؤهم ، ولم يعد أحد يعرف من سلالاتهم ، من هو الهندى ومن هو الابيض

وبلغ عدد الاسر ، بعد مائة عام ، نحو عشرين أسرة لكل منها بيت ومزرعة صغيرة ، وفى وسط الوادى ، أقيم مكتب للبريد ، ومتجر عام ، وعلى مشارفه ، بجوار الجدول المتفرع من النهر ، أقيمت المدرسة

وعاشت هذه الاسر فى رخاء وسلام .. فقد كان الوادى خصبا والعمل فيه سهلا ، وكانت ثمار حدائقه أعذب الثمار فى الولاية كلها

ولكن مزرعة من مزارع جنة السماء بقيت فى رأى سكان الوادى ،

مزرعة منحوسة سيئة الطالع .. هى المزرعة المسماة مزرعة باتل، وكان الاطفال يعتقدون انها « مســكونة » بالاشباح والعفـاريت . وذلك رغم انها خصبة الارض ، سهلة الرى ، ولم يحاول أحد من سكان الوادى أن يقيم فى البيت الكبير الخاص بهـا ، ولا أن يزرع جانبا من أراضيها . وهكذا بقى البيت الكبير مهجورا موحشا ؛ والحديقة المحيطة به مهملة ، تنمو فيها النباتات البرية ، والاشجار الفاتحة التى ترسل تحتها ظلالا أشد قتامة

وظلت مزرعة باتل خمسة أعوام وهى على هذه الحال من الوحشة والعزلة . وكانت الاعشاب البـرية ، التى لم تعد تخشى منجـل الحصاد ، تنتهز هذه الفرصة فتنمو بضراوة وسرعة حتى أصبحت كأنها أشجار صغيرة . اماحديقة الفاكهة فقد كانت النباتاتالمتسلقة تلتف حول جذوع الاشجار ، وتمتـد هنا وهنـاك حتى أصبحت الحديقة كلها شبكة متداخلة من النباتات والشجر . أما الثمار فكانت تزداد عددا .. وتصفر حجما

وكان البيت نفسه مربعا ، قوى البنيان ، مكونا من طابقين ،وكان جميلا ، رائعا عندما كان يحتفظ بنضارته وطلائه الابيض ، اما بعد أن غدا مهجورا موحشا .. فقد تساقط طلاؤه ، وانتشرت الاعشاب حول جدرانه ، وكسر الاطفال كل زجاج نوافذه ، كمـا حملوا من متاعه كل ما يمكن حمله، كما أنهم لم ينسوا أن يردموا بئره بالحجارة والطين ، وفيما كان بعضهم يدخن الطباق خلسة فى مخزن المحاصيل، سقط عود من الثقاب على أوراق شجرة جافة فاشتعلت النيران وأتت على المخزن كله . وقال سـكان الوادى أن بعض الدخـلاء العابرين هم الذين تسببوا فى الحريق

وكانت المزرعة نفسها تقع فى منتصف الوادى ، تحف بها على الجانبين أحسن وأزهر مزرعتين فى الوادى بأكمله . ومع ذلك لم يحاول أحد أن يزرع جانبا منها ، لان سكان الوادى كانوا يعتبرونها مثابة للشر وسوء الطالع بعد الاحداث الخفية التى وقعت لاصحابها جيلا بعد جيل

لقد عاش فيها جيلان من عائلة باتل .. ففى عام ١٨٦٣ أقبل جورج باتل من الغرب .. من نيويورك ، وكان شابا عند وصوله ، وكانت أمه قد زودته بالمال اللازم لشراء المزرعة وبناء البيت . فلما فرغ من هذه المهمة أرسل يستدعيها لتعيش معه ، ولكنها ماتت فى الطريق .. قبل أن تصل

وشرع جورج يبحث عن زوجة له ، وقد عثر على هذه الزوجة فى بلدة ساليناس .. انها العذراء العانس ميرتل كاميرون ، فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، وتمتلك ثروة صغيرة ، وتتعرض بين الحين والاخر لنوبات عصبية ، ولم يهتم جورج بهذه النوبات التى قيل له ان سببها سوء الهضم ، كما أنه كان يدرك أن الانسان لا يستطيع أن يحصل على كل شىء

وأصبحت ميرتل زوجته ، وحملت له ابنا ، وبعد أن وضعته ، حاولت أكثر من مرة ، فى نوباتها العصبية، أن تحرق البيت ،وأخيرا أودعت مصحة ليبمان فى مدينة ســـان جوزيه ، وبقيت فيها الى أن وافاها الاجل

ومنذ ذلك الحين والمنزل الكبير يخضع لاشراف هذا النوع من مديرات البيوت ، ذوات المزاج الحاد والطبع السيىء ، اللاتى ينشرن فى الصحف اعلانات هذا نصها « أرملة فى الخامسة والاربعين ، تطلب عملا كمديرة بيت .. تحسن الطهو ورعاية الاولاد »

وتعاقبت المديرات على البيت ، الواحدة بعد الاخرى . وكانت كل واحدة تبدو فى أول الامر رقيقة هادئة ، حتى اذا علمت بمأساة ميرتل ، ثارت وشعرت أنهـا خدعت ، وان المكان ملىء بالاشبـاح الشريرة ، وهكذا ظل الحال على هذا المنوال حتى بلغ جورج الخمسين من عمره ، وحتى انحنت قامته من فرط العمل فى الارض ، وغامت عيناه من فرط الحزن والاكتئـاب . ولكن مزرعته ظلت رائعـة ، وثمارها أعذب من كل ثمار فى الوادى ، كما ظل البيت جميلا نظيفا مرتبا ، وحديقته يانعة مشرقة بالزهور والرياحين ، ولم يكن الطابق الاعلى قد سكن اطلاقا . وكان جورج ينتظر أن يسكنه مع زوجة

ثانية .. ولكن هذه الزوجة لم تصل أبدا .. ويبـدو أن اهتمامه بالبيت والمزرعة ، وانتظاره للزوجـة الثانيـــة ، جعله لا يهتم كثيرا بابنه جون الذى كان ينمو كالنبات البرى .. بلا رعاية أو تهذيب

واتجه جون وهو فى العشرين من عمره الى الدين .. وانطلق فى قافلة يجوب البلاد مبشرا ومنذرا .. ولما مات أبوه فى الخامسة والستين ، عاد جون ليستولى على المزرعة والبيت ،وكان قد ورث عن أمه النوبات العصبية ، ولكن أحدا لايعرف من أين ورث التعصب لمحاربة الشيطان فى كل مكان ، وكان يمضى من مكان الى اخر يلعن الشياطين ، ويخطب فى الجماهير طالبا أن يعينوه على هذه الحـرب الشيطانية . وعلى هذا النحو ترك المزرعة لتغدو مرتعا للاعشاب البرية ، والبيت ليبدو موحشا مهجورا .. ورغم هذا كله ، فقد ازدادت الشياطين قوة واستهتارا !

وكان جون يكسو ملابسه ــ حماية لنفسه ــ بصلبان صغـــيرة مشغولة بالخيط الابيض ، وبهذا الدرع ، انطلق فى معركته ضـد الشياطين وأشباح الظلام

وفى عتمة الفجر ، كان جون يخرج من بيته المهمل ويجوس خلال المزرعة البائرة مسلحا بهراوة ضخمة ، وكلما وجد خميلة من الشجر أو مجموعة من الشجيرات أو عقودا من الاعشاب ، اندفع بالهراوة يضرب يمينا ويسارا وهو يصيح باللعنات الطاردة للشـــياطين . وكان فى ســاعات الليل يزحف على اجتمـاعات الشياطـين حول الشجيرات فيضربها بهراوته .. أما فى النهار ، فكان يستغرق فى النوم مطمئنا الى أن الشياطين لا تظهر فى الضوء

وفى ذات يوم ، عند شفق الغروب ، زحف جون بهـراوته الى خميلة سوسن بالحديقة ، وكان يعرف أن هذه الخميلة مثابة لاجتماع الشياطين والمردة كل ليلة ، ولما اقترب منها مسترقا الخطى ، هجم عليها فجأة وهو يضرب عيدانها المتشابكة بهراوته ، صائحا باللعنات الطاردة للشياطين .. وفجأة برزت أمامه أفعى ضخمة من ذات الاجراس ، ورفعت هامتها ورأسها المفلطح . وسقطت الهراوة من

يد جون ، وتسمر فى مكانه ، لان فحيح الافعى كان رهيبا يملأ القلب بالفزع ، ويشل العضلات عن الحركة

ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ، فركع يصلى متمتما .. ثم وقف هاتفا :

ـ هذه هى الافعى الملعونة التى أخرجت آدم وحواء من الجنة .

وانقض عليها يريد خنقها بأصابعه المعقوفة .. ولكن الافعى لدغته ثلاث مرات فى عنقه المكشوف العارى من الصلبان الحامية ،وسقط جون على الارض يتلوى ثم يموت فى لحظات

ولم يعثر عليه جيرانه الا عندما رأوا الغربان تحوم فى المنطقة بكثرة تثير علامات الاستفهام

وظلت المزرعة مهجورة عشرة أعوام . وكان الاطفال يقولون ان البيت مسكون بالاشباح ، ومن ثم كانوا يقومون برحلات ليلية اليه ليخيفوا أنفسهم

وكان البيت والمزرعة قد آل كل منهما الى قريب لجون باتل يقيم فى ولاية بعيدة . وقد تنهد هذا القريب فى ارتياح عندما اشترتهما منه أسرة ماستروفيل فى عام ١٩٢١ . وأقبلت الاسرة للاقامة فى احدى غرف البيت ، ولزراعة الارض بعد تطهيرها من الاعشاب البرية

وكانت الاسرة مكونة من زوجين عجوزين لا يعرفان كلمة انجليزية واحدة ، ومن ابن شاب قوى الجسم وسيم الوجه ، كان يقوم بمهمة « الترجمان » بين والديه وسكان الوادى ، على أن لغته الانجليزية لم تكن تتيح له الحديث الا فى أضيق نطاق..

وفى المتجر العام كان الاهالى يسألونه برفق دون أن يظفروا منه بشىء ، كان المستر أللين صاحب المتجر يسأله :

ـ كنا نظن أن بيتكم مسكون بالاشباح .. فهل هذا صحيح :

وكان الشاب يرد ببساطة :

ـ لا ..

ـ ستكون المزرعة جيدة جدا بعد أن تقتلعوا منها الاعشـــاب البرية

وهنا يستدير الشاب وينصرف

ويقول المستر أللين لبعض عملائه :

ـ ان فى هذه المزرعة والبيت شيئا • فان كل الذين يعيشون فيهما يكرهون الحديث •

وكان الزوجان العجوزان لا يشاهدان الا قليلا جدا ، أما الشاب فكان يشاهد وهو يعمل فى المزرعة من بكور الصباح الى ما بعد الغروب ، وكانت الاسرة كلها تقيم فى غرفة المطبخ بالجانب الخلفى من البيت • أما بقية البيت فقد ظل على ما كان عليه •• موحشا •• متداعيا •• لا أثر فيه لحياة •

وظل الشاب يعمل جاهدا فى المزرعة لمدة سنتين حتى أينعت وازدهرت وعادت الى روعتها

وفى ذات صباح كان بات هامبرت ـ أحـــد ســـكان الوادى ـ ينطلق بسيارته العتيقة الى المتجر ، وهناك قال للمستر أللين :

ـ اننى لم أر دخانا يتصاعد من مدخنة ال ماستروفيك طيلة هذا الصباح •• كما أنى لم أر ذلك الشاب فى المزرعة •• يبدو لى أن المكان عاد مهجورا ••

وظل الجيران يرقبون مدخنة آل ماستروفيك ثلاثة أيام •• وكلما مر يوم دون أن يتصاعد منها دخان ، ازدادوا شعورا بالخـــوف والرهبة • وفى اليوم الرابع تقدم بات هامبرت وجون هوايتسيد وأللين نحو البيت • ورابهم الهدوء المخيم عليه • وطرق هوايتسيد على باب المطبخ الذى اعتادت الاسرة الاقامة فيه ، ولما لم يرد عليه أحد ، حول المقبض ، وفتح الباب •• ودخل مع زميليه

كان المطبخ نظيفا ، والمائدة معدة للافطار ، والاطباق مليئـــة بالعصيد والبيض المشوى وشرائح الخبز ، وكان ثمة طبقة رقيقة من العفن فوق الطعام كله • وصاح بات هامبرت قائلا :

ـ هل هنا أحد ؟

وفتشوا البيت المهجور بدقة دون أن يعثروا فيه على أحد ٠ وكان الواضح أن الاسرة تركت البيت فى سرعة وهى تستعد لتناول الافطار ، ولم يعرف أحد لماذا تركت الاسرة البيت ٠٠ أو الى أين ذهبت ٠٠

وعادت النباتات البرية الى المزرعة تحتلها من جديد ٠٠ وعاد البيت الى وحشته وعزلته ٠ وبيع الاثنان ـ نظير الضرائب المتأخرة عليهما ـ الى احدى الشركات ٠ وراح الناس فى الوادى يقولون بعضهم لبعض :

ـ ان أرض المزرعة جيدة وخصبة ٠٠ ولكننى لا أشتريها ولو بدولار واحد

***

وفى عام ١٩٢١ شعر سكان الوادى بالرهبة حين علموا أن مزرعة باتل سوف تسكن من جديد ٠ وكان أول من حمل هذا الخبر الى المتجر العام بات هامبرت الذى شاهد عددا من سيارات النقل أمام البيت المهجور

ونشر آللين ، صاحب المتجر ، الخبر بسرعة بين سكان الوادى ، كما راح يتخيل كل شىء عن السكان الجدد ، ثم يحول الخيال الى حقائق يدلى بها لعملائه كلما توافدوا عليه :

ـ يقولون ان ذلك الشخص الذى اشترى مزرعة باتل من الاشخاص الذين يبحثون عن الاماكن « المسكونة » لانه من هواة الاشباح والعفاريت !

وكان المشترى الجديد لمزرعة باتل هو برت مونرو الذى تدار حوله عشرات الاقاصيص فى الوادى الاخضر ٠ وكان من جانبه يعلم أن الناس فى الوادى يختلسون النظر اليه ويقيسونه ويزنونه بعقولهم وآرائهم ويتابعون كل حركة يقوم بها ، ويستوعبون فى ذاكرتهم نوع ملابسه ، ولون شعره وعينيه وطريقة حديثه وابتسامته ٠٠ كل هذا يقومون به وهم يتظاهرون أمام الوافد الجديد أنهم لا يشعرون به أو لا يرونه !

وبعد أن اشترى برت المزرعة ، شرع من فوره – بمعونة عدد كبير من العمال – فى اصلاح البيت الكبير والحديقة الواسعة المحيطة به . وفى نهاية عشرين يوما كان البيت الكبير قد عاد الى روائه ومهابته وطلائه الجديد ، وعاد الزجاج الى النوافذ الجديدة ، وامتلأ من الداخل بالمفروشات والامتعة الجديدة .. ورفع سقفه القديم ووضع له سقف جديد على الطراز الحديث

أما الحديقة فقد أعيد حرثها ورفعت الاعشاب البرية منها ، وقامت أشجارها وزرعت من جديد بالازهار والاشجار المثمرة حتى عادت جنة فيحاء

وبعد أن تم اعداد هذا كله ، أقبلت المسز منرو والابناء الثلاثة . وكانت المسز منرو سيدة ممتلئة الجسم تضع على عينيها نظارة بلا اطار ، تعلقها بشريط مشدود الى عنقها . وكانت ربة بيت ممتازة ، لا تهدأ ولا تستقر حتى تطمئن الى أن كل قطعة أثاث فى مكانها المناسب

وكانت ابنتها ماى غادة حسناء مستديرة الوجنات ناضجة الشفاه ، ممشوقة القوام ، متوسطة الذكاء ، فى عينيها ثغرات تنم عن المودة والحياء . وكانت فى مجموعها صورة مصغرة لامها .. أى أنها لن تزيد فى يوم ما على أن تكون زوجة وفية صابرة ، وربة بيت ممتازة

وزينت ماى غرفتها بصور صديقاتها من مدينة مونتريرى التى نشأت فيها ، وحشرت بين الاطار وزجاج المرآة برامج الموسيقى الراقصة ، وأودعت مجمع صورها ودفتر مذكراتها فى درج خزانة صغيرة بجوار سريرها . وكانت ماى تسجل فى مذكراتها ، التى لا يطلع عليها أحد – حفلات الرقص التى شاهدتها ، والزيارات التى قامت بها ، والصداقات البريئة التى عقدتها مع الشبان فى مثل سنها ، وكانت قد بلغت التاسعة عشرة من عمرها حين بدأت حياتها فى الوادى الاخضر ، وقد قامت بنفسها بشراء الستائر الزاهية الالوان لغرفتها ، كما لم تنس أن تشترى مجموعة جديدة

من الفساتين لعروستها ، التى تبلغ نصف حجمها ، والتى كانت تحرص ماى على أن تضع فى فمها ســـيجارة من القطن دلالة على أن عروستها فتاة عصرية جدا !

أما آمالها فى الحياة فكانت تتركز فى كلمة واحدة هى«الزواج » !

وكان الابن الثانى جيمى مونرو ·· شاب فى السابعة عشرة . تخرج فى المدرسة الثانوية ، واستعد للمرحلة الجامعية ، وكانت له آراؤه الخاصة فى الحياة والاحياء ·· ولهذا كنت تراه يجلس أمام والديه فى سكون واكتئاب لأنه مقتنع تماما بأنهما لن يفهمـــا آراءه ومشاعره · وكانت له أهدافه الخاصة بطبيعة الحـــال ·· وكانت هذه الاهداف تتركز فى « العلم » ·· علم الراديو وعلم الميكانيكا وعلم الحفريات ·· أى نوع من العلم الذى يطور حياة الانسان · وكان كثيرا ما يتخيل نفسه مشغولا بحفريات أثرية فى جمهورية بيرو مثلا ، حيث يعثر على الاوانى الذهبيـــة والتحف الاثرية · وفى أحيان أخرى يتخيل نفسه سجين معمل من معامل البحوث لا يخرج منه بعد سنوات الا بطراز جـديد من الطائرات · مثلا ··

ولم يكن عجيبا أن تغدو غرفة جيمى فى البيت الجديد مثابة لالوان وفنون من الادوات الكهربية والميكانيكية والاسلاك والاجهزة المختلفة ·· وكان ثمة صندوق من الحديد فى جانب الغرفـــة لا يفتحه الا اذا أغلق الباب من الداخل ، وكان الصندوق الحـديدى يحتوى على قطعة ديناميت ، ومسدس عتيق ، وعلبة سجائر من نوع نادر يسمى ميلاكرينو ، ومدية على شكل خنجر ، وقنينة من خمر الخوج ، وأربع رزم من رسائل تلقـاها من أربع فتيـــات ، وست عشرة قطعة من أحمر الشفاه أخذها تذكارا من ست عشرة فتاة تعرف بهن فى حفلات الرقص المختلفة ، وعدد من الازهار المجففة ومناديل اليد ، والازرار

وكان جيمى فى أثناء دراسته الثانوية ، لا يتردد فى الخوض مع زملائه كل لون جديد عليهم من ألوان الحياة ·· ولهذا اعتبر

نفسه ، حين وفد للاقامة فى الوادى الاخضر ، شابا مجربا ، له ماض طويل ، ومغامرات حب لا حصر لها ، مما جعله فى فترة قصيرة موضع اعجاب فتيات الوادى ، وفاتن العذارى وكان فى الواقع وسيما ، متناسق الجسم ، أسود الشعر والعينين

أما مانفريد ، الابن الاصغر ، فكان صبيا فى السابعة من عمره · جاد السمت ، ولكنه كان مصابا بمرض غدائى « اختلال بعض الغـــدد » يجعله معرضا بين الحين والاخر لنوبات عصـــبية ·· وكانت بعض هذه النوبات من الشدة بحيث تجعله يضرب رأسه فى الجدار ـ أى جدار ـ حتى تسيل الدماء منه

وكان برت مونرو ـ رب الاسرة ـ قد جـــاء للاقامة فى الـــوادى الاخضر بعد أن تعب من الصراع ضد هذه القوى الخفيـــة التى تلاحقه بالهزيمة فى الحياة دائما · لقد قام بمشروعات كثيرة ، وكان كل مشروع ينتهى بالفشل لاسباب خارجة عن ارادته · وكان فى النهاية يرى أن هناك قوى شريرة تحاربه خفية وتضع العراقيل أمام مشروعاته لا سيما حين تبشر بالنجاح ·

ورغم ان برت لم يكن قد تجاوز الخامسة والخمسين من عمره ، الا انه قرر أن يستريح من عناء الكفاح بعد أن تأكد لديه أن هناك لعنة تطارده

منذ أعوام بعيدة أنشأ محطة بنزين على مشارف احدى المدن · ولما نجح المشروع ، انشأت الولاية طريقا عاما بعيدا عن محطته .. ولم يلبث المشروع أن باء بالفشل

وباع المحطة وافتتح متجرا عاما .. وحالفه النجاح .. وســـدد ديونه ، وبدأ يدخر فى البنك مالا .. ولكن لم تلبث أن أقامت احدى الشركات سلسلة من المتاجر العامة فى المنطقة ، فكســـدت تجارته وأطبق عليه الفشل مرة اخرى

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، أخذ يتجر فى محصول الفول ، وربحت تجارته الى حد فاق كل خيال .. واتسعت أعمـــاله .. وتعاقد على شراء آلاف من أطنان الفول لتوريدها للجيش ·· وفجأة

عقدت الهدنة وانتهت حاجة الجيش الى الفول . وهبطت أسعاره . وأفلس تماما . .

وأدرك فى هذه المرة أن هناك لعنة سوداء تطارده ، فقبع فى داره فى مدينة مونتريرى ، وراح يشغل وقته بزراعة حديقته . . ومع مرور الوقت وجد أن الزراعة عمل يهدىء الاعصاب ، واحتمال الفشل فيه قليل . . وهكذا قرر أن أن يشترى مزرعة صغيرة يقضى فيها بقية حياته مستريحا

وهكذا اشترى مزرعة باتل عندما عرضتها الشركة للبيع بثمن بخس . وشعر برت بالراحة النفسية فى اللحظة التى تم فيها عقد الشراء . لقد أحس أن اللعنة قد رحلت عنه ، وان سوء الطالع قد ابتعد الى غير رجعة ، وما أن مضى شهر واحد حتى استقام عوده ، وزالت عن وجهه سمات الاكتئاب والخوف من المجهول ، وازدادت حماسته للزراعة ، وراح يقرأ عشرات الكتب عن الفلاحين والبساتين ، واستأجر مساعدا للعمل معه من الصباح الى المساء ، وكان يجد أن كل يوم حياة جديدة ، وأن كل حبة نبتت فى الارض تعتبر أملا جديدا . وامتلأ قلبه بالسعادة بعد أن استرد ثقته بنفسه ، وراح يعقد أواصر الصداقة مع الاهالى فى الوادى ، ويثبت مكانته بينهم يوما بعد يوم

ولكن هذا كله لم يأت عفوا أو بسهولة . . فقدكان المعروف ان السكان فى المناطق النائية لا يتقبلون الغرباء بينهم بسرعة ، ومن ثم بدأ سكان الوادى يراقبون برت مونرو فى أول الامر بشعور عدائى . انهم يعرفون ان المزرعة « مسكونة » بالاشباح والعفاريت . هكذا كانوا يرونها دائما حتى الذين اعتادوا أن يسخروا من هذه المعتقدات الخرافية . . ولكن . . ها هو ذا رجل غريب يفد على الوادى ليثبت انهم كانوا جميعا على خطأ فى رأيهم ! واكثر من هذا فقد غير وجه الوادى بأن أزال مزرعة كلها الاعشاب والنباتات البرية ، وجعل مكانها مزرعة نموذجية وافرة الثمار . وكان الناس قد اعتادوا على رؤية المزرعة القديمة ، ومن ثم شعروا ــ باحساسهم

الباطنى ، بالنفور من هذا التغيير الذى طرأ عليها

ولكن برت استطاع ، بما يشبه المعجزة ، أن يزيل من نفوسهم هذا الشعور الباطنى بالعداء ، وأن يصبح فى خلال ثلاثة أشهر واحدا منهم ، فكان يستعير منهم الادوات الزراعية ويعيرهم اياها .. وفى نهاية الشهر الثالث انتخب عضوا فى مجلس ادارة المدرسة ، وكانت سعادة برت النامية من شعوره بالتحرر من اللعنة ، تجعله بشوش دائما ، لطيف المعشر ، هادىء الاعصاب ، فأحبه الاهالى ، واخذوا يتحدثون عنه بالخير فى مجالسهم ، وفوق هذا كله كان بطبيعته رجلا شفيقا ، يسعده أن يؤدى الخدمات لجيرانه ، ولا يتردد فى طلب الخدمات من الاصدقاء

وقد شرح ظروفه أمام الاهالى فى المتجر العام . وحمدوا له صراحته وأمانته فى الحديث ، وقد حدث هذا يوم ألقى عليه اللين ، صاحب المتجر العام السؤال التقليدى :

ـ كنا دائما نظن أن أشياء كثيرة تحدث فى المزرعة والبيت ليلا .. فهل رأيت شبحا أو عفريتا فى أثناء اقامتك فيها !

فضحك برت وقال :

ـ عندما تنظف البيت من بقايا الطعام ، فان الجرذان تهجره .. وهكذا الامر معى .. فقد رفعت منه كل ما كان فيه ، ووضعت أثاثات جديدة .. ولا شك أن العفاريت ذهبت مع الاثاثات القديمة

وقال اللين معترفا :

ـ الواقع انك جعلت من البيت مكانا رائعا .. ليس مثله بيت فى الوادى كله

ثم أردف قائلا وهو يتلفت الى عملائه :

ـ وكذلك المزرعة .. لقد أصبحت أجمل مزارع الوادى بلا جدال . ان أرضها خصبة قوية

وفجأة زوى برت ما بين حاجبيه حين طرأت بذهنه فكرة جديدة .. ومن ثم قال :

ـ لقد حالفنى سوء الطالع سنوات عديدة

ولما رأى الجميع ينظرون اليه فى تساؤل ، قال مستطردا :

ـ لقد قمت بأعمال ومشروعات كثيرة انتهت كلها اليك بالفشل ، ولما جئت الى هنا ، كنت مؤمنا بأن هناك لعنة تلاحقنى

ثم أرسل ضحكة نبعت من الفكرة التى طرأت على ذهنه ، وقال :

ـ وماذا فعلت هنا ؟ ان أول شيء فعلته اشتريت مزرعة حلت عليها لعنة دائمة . وقد خطر ببالى الان انه ربما اشتبكت اللعنة التى ظلت تطاردنى مع اللعنة التى تطارد هذه المزرعة ، ثم سقطت اللعنتان صريعتين فى النهاية

وضج الحاضرون بالضحك العريض . وضرب اللين كفه بقبضة يده وقال ضاحكا :

ـ انها فكاهة حلوة ٠٠ ولكن اليك واحدة أحلى منها ٠٠ لعل لعنتك تزوجت لعنة المزرعة ، وذهبتا لتعيشا كأفعى وثعبان فى جحر ، ولعل أن تخرج عنهما لعنات صغيرات وليدات تنتشر فى أنحاء الوادى !

ومرة أخرى ضج الحاضرون بالضحك العريض ، وقرر اللين أن يسجل هذه الفكاهة لانها ، فى رأيه ، تشبه ما يقال فى السينما !

ولكنه لم يكن يدرى فى تلك اللحظات أن الامر سيكون بالعكس، وان اللعنة التى رحلت عن برت مونرو قررت أن تأخذ معها اللعنات الصغيرة التى كانت متناثرة هنا وهناك فى أنحاء الوادى الاخضر

الفصل الثانى

حادث غرام

كان ادوارد ويكس يقيم فى بيت صغير على الطريق العام فى مشارف الوادى الاخضر ، وكان وراء البيت بستان للخوخ وحديقة خضراوات • وفيما كان ادوارد يعنى ببستان الخوخ ، كانت زوجته وابنته الجميلة تهتمان بأمر الحديقة وتحملان ثمارها اليانعة الى السوق فى المدينة مرة كل أسبوع لتحصلا على أعلى الاسعار

وكان لادوارد وجه عريض ملوح ، وعينان صغيرتان باردتان خاليتان من الاهداب ، وكان معروفا فى أنحاء الوادى بأنه اكثر الرجال مراوغة وغموضا وبراعة فى عقد الصفقات ، ولم يكن يتورع عن الخداع والاحتيال فى عقده لصفقات بيع الجياد • وبسبب براعته هذه اكتسب احترام جيرانه من سكان الوادى ، ولكنه ، وهذا هو العجيب فى الامر ، لم يستطع جمع ثروة من المال ، الا انه كان يحب أن يتظاهر أمام الجميع بأنه يستثمر ثروة ضخمة فى الاسهم والسندات والاوراق الماليه بوجه عام . وكان فى اجتماعات مجلس ادارة المدرسة يسأل زملاءه عن رأيهم فى مختلف الاسهم والسندات المعروضة للبيع فى الاسواق المالية ، وبهذا استطاع أن يترك فى نفوسهم اليقين بأنه موفور الثراء فعلا .. ولم يلبث أن أطلق عليه سكان الوادى اسم « شارك » أى نمر البحر

وكان بعضهم يقول للبعض الاخر :

ـ نعم •• أعتقد أن ثروة شارك لا تقل عن عشرين ألف دولار وربما أكثر .. انه رجل بارع حقا !

أما الحقيقة فان شارك لم يكن قد رأى فى حياته مقدارا من المال، يزيد على خمسمائة دولار

وكان شارك يستمد سعادته الكاملة من اعتقاد الناس بثرائه الواسع . بل لقد بلغ من استمتاعه بهذا الثراء الوهمى ، انه بدا يؤمن حقا انه ثرى .. وقد قدر لنفسه ثروته الوهمية بمبلغ خمسين ألف دولار ، ثم خصص دفتر حسابات ضخما أخذ يحسب فيه أرباحه من استثمار هذه الثروة الضخمة فى مختلف أوجه الاستثمار . وكان هذا العمل هو أول شيء يملأ نفسه بالبهجة ويجعله يشعر بالسعادة لاول مرة فى حياته

وتكونت شركة لاستخراج البترول فى مدينة ساليناس ، ولما سمع شارك بهذا ، ذهب الى مزرعة جون هوايتسيد ليتحدث معه فى قيمة أسهم هذه الشركة من الناحية المالية . وقد قال :

ـ اننى أفكر فى مكانة هذه الشركة

وقال له جون هوايتسيد :

ـ ان البحوث الجيولوجية تبشر بالخير . وكثيرا ما سمعت بأن هناك بترولا فى هذه المنطقة

ثم سكت برهة قبل أن يردف قائلا :

ـ ولكننى أنصحك بألا تغامر بشراء عدد كبير من الاسهم على كل حال .. ان الاحتياط واجب

ولوى شارك شفته السفلى ، ووضع ابهاميه فى حمالة بنطلونه مفكرا ، ثم قال :

ـ اننى أدير الامر فى ذهنى .. ويبدو أن هذه الشركة لابأس بها ، ولدى نحو عشرة آلاف دولار لا تأتى بربح معقول .. وقد جئت اليك لاستشيرك فى استثمار هذا المبلغ البسيط فى الشركة الجديدة

ولما عاد شارك الى بيته ، أخرج دفتر حساباته الضخم من مخبئه وسحب من ثروته الوهمية مبلغ عشرة آلاف دولار وسجل شراءه لالف سهم من أسهم الشركة الجديدة ، ثم راح منذ ذلك اليوم يرقب أسعار أسهم الشركة فى بورصة الاوراق المالية . وكلما ازداد سعر السهم ، قام بعملية حسابية وسجل مجموع الربح وأضافه الى رصيده من الثروة .. واذا انخفض السعر يوما ، قام بنفس العملية

وسحب مجموع الخسارة من الرصيد العام .. وهكذا كان يضيف الارباح أو يخصم الخسائر من ثروته الوهمية وكأنها حقيقة لا جدال فيها

وحدث ذات يوم أن ارتفعت اسعار السندات « الوهمية » التى يمتلكها شارك « بالخيال » ارتفاعا كبيرا ، فشعر بالسعادة البالغة وذهب الى متجر الوادى الاخضر واشترى ساعة صالون قائمة على عمودين من الرخام الاسود فوق قاعدة من الرخام الاخضر ، احتفالا بهذه الارباح الطارئة . وتبادل الجالسون فى المتجر النظرات والهمسات قائلين بعضهم لبعض أن شارك يزداد ثراء

وبعد أسبوع هبطت اسعار أسهم شركة البترول ، واختفت الشركة من السوق . وبمجرد أن علم شارك بهذه الانباء ، أسرع الى دفتر حساباته وسجل فيه أنه باع كل أسهمه فى الشركة قبل الهبوط بيومين ، وأنه نال ربحا قدره ألفان من الدولارات

وفيما كان بات هامبرت عائدا بسيارته من مونتريرى ، فوقف أمام بيت شارك وقال له :

ـ سمعت ان شركة البترول الجنوبية أفلست ! . .

وابتسم شارك بهدوء وقال :

ـ ماذا تظن بى يابات ؟ لقد بعت كل أسهمى فيها منذ يومين . ان رجل المال البارع يشم رائحة الافلاس من بعيد جدا . كما اننى كنت أعرف أن الشركة سوف ترفع سعر أسهمى ليطمئن الناس اليها ثم تعلن افلاسها بعد ذلك .. تلك لعبة قديمة لا تخفى على المتمرس بشئون الاوراق المالية

فهتف قائلا باعجاب :

ـ ما أبرعك ياشارك

ثم انطلق الى المتجر العام يحمل النبأ الى المترددين عليه . وعاد الناس فى الوادى الاخضر يتهامسون ببراعة شارك وقدرته على تنمية ثروته

وفى خلال هذه الفترة كان شارك قد اقترض أربعمائة دولار من

بنك مونتريرى واشترى جرارا زراعيا مستعملا أكد به ما يقال عن ثروته الوهمية

وانتشرت براعة شارك المالية بين الاهالى ، بحيث لم يعد واحد من سكان الوادى يرغب فى شراء أسهم أو سندات أو عقارات من اى نوع الا ذهب الى شارك لاستشارته . وكان شارك ، فى الواقع ، لا يتسرع أو يتهور فى تقديم مشورته ، وانما كان يبحث الامر مع طالب الاستشارة بدقة وعناية قبل أن يدلى برايه .. وكانت النتيجة دائما مؤيدة لرأى الناس فيه وفى براعته

وفى خلال سنوات قليلة ، أثبت دفتر حساباته أن ثروته «الوهمية» قد بلغت مائة وخمسة وعشرين الف دولار . وكان جيرانه يزدادون احتراما له كلما رأوه يعيش كواحد منهم .. ومن ثم كانوا يتهامسون بأن ثروة شارك لم تسكره وتجعله يزهو ويتكبر على جيرانه ويحاول أن يعيش فى مستوى أعلى منهم

وهكذا بنيث زوجته وابنته الحسناء تعملان فى حديقة الخضر وتعدان محصولها للبيع فى أسواق مونتريرى ، وبقى هو مشغولا دائما بالعمل فى المزرعة وبستان الخوخ

وكانت حياة شارك خالية من نزوات العاطفة وخيالات الحب . فقد تزوج وهو فى التاسعة عشرة من عمره من زوجته الحالية كاترين بعد أن صحبها ثلاث مرات فقط الى حفلات راقصة ، ولم تكن كاترين جميلة ، ولكنها كانت فى نضارة عود النبات الفارع ، وفى قوة المهر الجامح . وبعد الزواج فقدت نضارتها وحيويتها كالزهرة حين تقطف ، فتهدل وجهها ، واتسع منكباها ودخلت فى المرحلة الثانية المقدرة عليها .. مرحلة العمل المتواصل من أجل لقمة العيش

ولم يكن شارك فى معاملته لها رقيقا أو قاسيا ٠٠ وانما كان يعاملها بنفس الاسلوب الذى يجمع بين الرقة والحزم ، الذى يعامل به الجياد . وكان يؤمن بأن القسوة لون من الغباء . ولكنه لم يكن يحدثها اطلاقا خارج نطاق الشئون اليومية العادية .. لم يحدثها

يوما عن آماله وأحلامه وأفكاره ومخاوفه .. لم يحدثها عن دفتر حساباته أو عن ثروته المسجلة فوق الورق فقط . ولو انه فعل هذا لدهشت كاترين وحسبته مجنونا

ولكن الشيء الحقيقي الوحيد الذى كان يهم شارك ويقض مضجعه هو ابنته الوحيدة الحسناء آليس

كان جمالها واضحا منذ ولادتها . وظلت سمات الجمال تنمو معها حتى أصبحت أجمل فتاة في الوادى كله . ولكن عقلها لم يكن يساير نمو جمالها ولا نمو جسمها ، ومن ثم أدرك أبوها ـ حين بلغت الرابعة عشرة من عمرها ، ان الذكاء الطبيعي ينقصها ، وان هذا النقص فيها قد يعرضها للوقوع فريسة فى مخالب أي شاب يحتال عليها ليظفر منها بأعز ماتملكه فتاة مثلها

وكلما رأى شارك الرجال الكبار يختلسون النظر اليها وقد احمرت وجوههم ، والفتيان يتعاركون كالنمور من أجلها ، ازداد شعورا بمسئوليته نحوها ، وازداد قلقا على عفافها ، وراح يتخيل عشرات الاخطار التى يمكن أن تقع فيها ابنته الحبيبة .. ومن ثم لم يكن يكف عن تحذيرها من أشياء كثيرة .. من نظرات الرجال والشبان .. ومن حوافر الجياد الخلفية .. من أعمدة السياجات والاسوار ، من عبور الطريق بلا حذر ، من الغرباء الوافدين على الوادى .. وكان كلما سمع عن وجود جماعة من الغجر الرحل أو بعض الدخلاء العابرين بالوادى ، حرص شارك على ألا يدع أليس تغيب عن عينيه لحظة

وكانت كاترين الام ـ بعكس الاب ـ سعيدة بغباء ابنتها ، لان هذا الغباء جعل الابنة فى احتياج دائم الى رعاية الام وعنايتها والسهر عليها

أما الوالد فكان ـ على قدر حبه لها ـ يشعر أنها أثقل أعباءحياته، ومنذ أن بلغت مرحلة النضج وهو دائم الفزع والخوف من أن تفقد طهارتها . وفقدان الطهارة في رأيه ، هو فقدان جانب كبير من جمالها

وأصبح أمر آليس كابوسا فى حياته .. فهو لا يكف عن تحذير زوجته مما قد يصيب البنت اذا غابت عن أنظارهما . وكان دائما يكرر هذه العبارة :

ـ اننا لا ندرى ماذا يمكن أن يحدث لها

ثم يردف قائلا وعيناه الشاحبتان تضجان بالشك والقلق :

ـ نعم .. لا يستطيع أحد أن يعرف ماذا يمكن أن يحدث لها

وهكذا لم يكن هناك أحد يحرس كنزا له كما كان شارك يحرس ابنته الحسناء آليس

وفى كل شهر .. فى أيام محدودة ، كان لا يكف عن سؤال زوجته :

ـ هل هى بخير ؟

فترد عليه قائلة باحتقار :

ـ لم يحن الوقت بعد ..

ويظل يسأل بمعدل مرة كل ساعة .. وتحتمل الزوجة اسئلته فى صبر .. ويتنهد هو بارتياح عندما تقول له فى النهاية ردا على سؤاله التقليدى :

ـ نعم .. انها بخير :

ويظل شارك مطمئنا حتى يحين موعد الدورة من الشهر التالى .. وعندئذ يعود الى تعذيب زوجته بأسئلته التقليدية حتى يطمئن مرة أخرى .. وهكذا

وفى ذات يوم ، حين تجاوزت آليس السادسة عشرة ببضعة اشهر ، قال شارك لزوجته والقلق يطل من وجهه :

ـ اننا لا نستطيع أن نطمئن .. تماما .. الا .. اذا ـ أعنى .. الا اذا عرضناها على طبيب !

وتحملق كاترين فى وجهه برهة وهى تحاول أن تفهم المعنى من حديثه .. ثم اذا هى تفقد السيطرة على نفسها وتهتف قائلة :

ـ انك رجل قذر التفكير .. اياك أن تحدثنى فى أمر كهذا مرة أخرى والا تركت لك البيت الا الابد

ويدهش شارك لثورة زوجته دون أن يحفل بتهديداتها ، ولكنه يقتنع فى النهاية بأن مسألة عرض ابنته على طبيب سابقة لاوانها ، وحسبه السؤال التقليدى فى كل شهر

وفى خلال هذا كله كانت ثروة شارك الوهمية تزداد تباعا فى دفتر الحسابات . وكان بعد أن تأوى كاترين وآليس الى النوم ، يمضى الى دفتر حساباته ويفحص استثماراته المختلفة ويحسب أرباحه وخسائره ويفكر فى أحدث الوسائل للحصول على المزيد من الارباح .. وكانت شفتاه تتحركان كأنه يتحدث تليفونيا لاصدار تعليماته .. وأحيانا يبدو الحزن والحزم فى عينيه حين يأمر بنزع ملكية عقار مرتهن لديه ، ثم يقول كأنه يحدث أشخاصا أمامه :

ـ معذرة أيها السادة .. ولكن الجد .. جد !!

***

وقبل أن تنتقل أسرة مونرو الى الوادى الاخضر ، كان شارك يرتاب فى كل شاب ورجل تقع عليه نظراته . ولكن عندما شاهد الشاب جيمى مونرو ازداد شكا وجزعا وحرصا على سلامة ابنته . ذلك انه رأى فى وسامة الشاب ونظراته المستهترة وسماته التى تنم عن « ماض حافل » أكبر خطر يتهدد ابنته !

والواقع كان الشاب جيمى خليقا باثارة كل أنواع الفزع والريبة فى نفس شارك .. فقد كان وسيم الوجه ، ممتلىء الشفتين ، لامع الشعر ، أنيق الملبس ، واثقا بنفسه ، مدركا أن بنات الوادى يتنافسن على مودته والاتصال به ، مؤمنا بأن البنات ، كل البنات ، يجرين عادة وراء الشاب ذى « الماضى الحافل » لسبب بسيط ، وهو أن كثرة غراميات الشاب دليل على جاذبيته وافتنان البنات به!

ولهذا السبب لم يكن جيمى يدخر وسعا فى اطلاق الشائعات عن « ماضيه الحافل » وعن عدد البنات اللاتى أوشكن على الانتحار من أجله !

وبلغت هذه الشائعات اذنى شارك فازداد حقدا على جيمى وخوفا منه ، وكان كلما تصور لقاء آليس بهذا الشيطان الوسيم جيمى :

سحب وجهه لما يمكن أن يحدث بينهما ... وكان يؤمن بأن آليس، بغبائها الطبيعى ، ما كانت لتستطيع أن تقاوم اغراء شاب مجرب مثل جيمى

وراح يحذر ابنته ، قبل أن ترى جيمى ، من مجرد الحديث الى الشاب أو مجرد النظر اليه :

ـ لن تعرفى ماذا سيحدث لك منى لو رأيتك تتحدثين مع ذلك الشاب جيمى مونرو

ـ من هو جيمى مونرو يا أبى ؟

ـ لا داعى للسؤال . ولكن حذار من الحديث معه ، ولو رأيتك تنظرين اليه فسوف أسلخ جلدك وانت على قيد الحياة

ولم يكن شارك يضرب ابنته قط ، بل كان يخشى أن يربت عليها خشية انه يترك على بشرتها أثرا . ولم يكن هناك مايدعو شارك لان يضرب ابنته ، لانها لم تكن تميل الى الشر ، والشر لا يتبع ـ فى رأى شارك ، الا من حدة التفكير او الطموح .. ولم يكن تفكير آليس حادا ، ولم يكن لها أى لون من ألوان الطموح

وكان كلما وقعت عيناه عليها سألها قائلا :

ـ هل رأيت ذلك اللعين جيمى ؟

ـ لا يا أبى

ـ حسنا .. حذار أن أراك تتحدثين معه

وكانت نتيجة هذا الالحاح فى تحذير الفتاة من ذلك الشاب جيمى ، أن صارت أليس تحلم به كل ليلة فى هيئة فارس يجتاح الوادى بجواده الابيض ، ثم يمد ذراعيه القويتين ويحملها معه الى عالم مجهول

وتلقى شارك ذات يوم برقية تخبره بأن « العمة نيللى ماتت أمس وستشيع جنازتها اليوم » ، واستقل شارك سيارته الفورد العتيقة ومضى بها الى مزرعة جون هوايتسيد ليقول له أنه لن يستطيع حضور جلسة مجلس ادارة المدرسة فى اليوم التالى ، وقبل أن ينصرف ، بدت عليه امارات القلق وهو يقول :

ــ كنت اريد أن أسألك عن رايك فى شركة سان جوزيه العقارية

وابتسم جو هوايتسيد وقال :

ــ الواقع اننى لا أعرف الشيء الكثير عن هذه الشركة

ــ آه ٠٠ ان لدى ثلاثين ألف دولار مودعة بلا استثمار على البنك ولا تزيد فوائدها على ثلاثة فى المائة ، ولهذا أفكر فى الاستفادة من هذا المبلغ بطريقة أفضل

ويلوى هوايتسيد شفتيه ، ويرسل صفيرا خافتا ، ويرسم حركة بأصبعه السبابة فى الهواء ثم يقول :

ــ اذا كان الامر كذلك ، فيحسن أن تستثمر هذا المبلغ فى هذه الشركة

ــ حسنا ٠٠ لسوف أبحث أمر هذه الشركة فى أثناء ذهابى الى اوكلاند لحضور تشييع جنازة عمتى نيللى

وفى تلك الليلة ، كثر الحديث فى المتجر العام عن الفوائد التى سيربحها شارك من مساهمته فى هذه الشركة لان شارك كان قد استشار عددا كبيرا من جيرانه فى هذا الامر ويختتم الليلة صاحب المتجر الحديث بقوله :

ــ لا يستطيع أحد أن ينكر براعة شارك فى هذه الشئون المالية . ومع ذلك فهو يستشير كل انسان قبل ان يقدم على مشروع جديد ٠ ولعل هذا سر نجاحه الدائم

ويؤمن الجميع على حديث اللين قائلين ان شارك رجل بارع حقا فى الشئون المالية ٠

وسافر شارك الى أوكلاند فى صباح السبت ، تاركا زوجته وابنته بمفردهما لاول مرة فى حياته ، وفى مساء اليوم نفسه اقبل توم بريمان يدعو كاترين وابنتهما أليس لشهود الحفلة الراقصة التى ستقام بالمدرسة فى تلك الليلة

وقالت كاترين معترضة فى خوف :

ــ ولكن زوجى ما كان ليرضى ان يسمح لنا بالذهاب

ــ انه لم يطلب منكما عدم الذهاب .. أليس كذلك ؟

ـ نعم . . نعم ٠٠ ولكنه ليس موجودا الآن ، ولو كان موجودا لما رضى بذهابنا

فرد توم بريمان قائلا :

ـ لا أظن ٠٠ أنه لا يكره أن تستمتعا بوقت طيب ٠٠ هلم استعدا للذهاب ، انها حفلة بريئة

وقالت اليس فى رجاء :

ــ هلم نذهب يا أماه .

وكانت كاترين تعلم أن ابنتها لا تتردد فى الذهاب لان غبـــاءها يجعلها لا تقدر العواقب ، انها لا تقدر مدى التعذيب الذى ستتعرض له الام لمدة أسابيع بعد عودة شارك ٠٠ بل ان الام لتكاد تسمعه وهو ينهال عليها بالاسئلة :

ـ لماذا ذهبتما بدون اذن منى ؟ مع من تحدثت أليس ، ومع من رقصت ؟ وماذا قال لها شريكها فى المراقصة ! ولماذا لم تســـمعى حديثهما ؟

وتظل هذه الاسئلة تنهال عليها أسبوعا بعد أســبوع حتى يأتى الموعد المحدد من كل شهر ليلقى عليها الاسئلة التقليدية بمزيد من الشك ٠ ومعنى هذا كله أن المتعة البريئة القصيرة الامد التى ستنعم بها مع ابنتها الليلة ، لا تساوى العذاب اسابيع كاملة .

ولكن أليس قالت فى رجاء :

ـ لنمض يا أماه ٠٠ اننا لم نذهب بمفردنا فى أى مكان طيـــلة عمرنا

وغمرت كاترين موجة من العطف على ابنتها . وتذكرت أن الفتاة المسكينة لم تنعم بالمتع البريئة فى حياتها .. لم تذهب الى حفلة ما ، ولم تتحدث الى صديقة أو صديق من الجيران ، ولم تخــرج بمفردها يوما .. ولم تعش ــ فى حجلتها ــ كما يعيش الذين فى مثل سنها ..

وقالت فى النهاية بصوت كله حزم :

ـ حسنا .. اذا انتظرت يا مستر بريمان حتى نرتدى الملابس المناسبة فسوف نذهب معك ..

وشعرت أن لها الحق في أن تتخذ مثل هـذا القـرار الذى لا يتعارض مع حقها الطبيعى ـ هى وابنتها ـ فى الحياة

***

يقال ان الجمال الباهر فى الريف يكاد يكون له نفس المساوىء التى للقبح الشديد . فآذا كان الشبان يشـيحون بوجوههم عن الفتاة القبيحة الوجه ، فانهم أيضا يتحرجون من النظر الى الفتـاة ذات الجمال الباهر ، وهكذا كان الامر مع أليس بين شبان الوادى .. كانوا يشعرون ـ عند رؤيتهم لها ، بجفاف فى حلوقهم ، ورطوبة فى كفوف ايديهم ، واحمرار فى اعناقهم ، وكان طبيعيا ان يشعروا بالحرج الشديد فى الحديث معها أو مراقصـتها ، ومن ثم كانوا يفضلون مراقصة الفتيات الاقل جمـالا ، مع الحرص على لفت نظرها بما يصدرونه من صخب وضجيج وضحك وعنف فىالرقص

وكانوا يختلسـون النظرات اليها اذا أدارت وجههـا عنهم ، ثم يسرعون بابعاد أنظارهم عنها حين تدير وجهها اليهم متظاهرين بأنهم لا يشعرون بوجودها ، وهكذا كانت الفتـاة المسكينة لا تجـد فى الحفلة الراقصة أحدا يحدثها أو يراقصها

أما فى هـذه الحفلة ، فقد كان فيها جيمى مونرو ، ابن برت مونرو ، الذى حول مزرعة باتل الى جنة خضراء ، وجعل من البيت المهجور منزلا آية فى الجمال والرواء .. كان جيمى فى قاعةالرقص معتمدا بكتفه الى الجدار ، وسيما ، أنيقا ، لامع الشعر ، جـذاب النظـرات . وما كاد يرى كاترين وابنتها أليس تدخـلان حتى كالصقر ووقف بجوار آليس وقال لها بذلك الصوت الممطوط :

ـ أترقصين يا عزيزتى معى ؟

ـ هه !..

ـ أتحبين أن ترقصى معى ؟

ـ أرقص .. أتعنى هذا ؟

وركزت آليس نظراتها العذبة على وجهه ، وكان صوتها ينم عن معان كثيرة غير مجرد السؤال ، وقال جيمى لنفسه مفتونا :

« انها تسألنى .. هل سترقص فقط ..؟! »

وشعر بغصة فى حلقه، ورطوبة فى كفيه .. والتفتت آليس الى امها التى كانت مشغولة بالثرثرة مع المستر بريمان وقالت لها :

ـ هل أرقص يا أماه ؟

وابتسمت كاترين لها وقالت :

ـ نعم .. أرقصى واستمتعى بحياتك ولو مرة واحدة

ولاحظ جيمى أن آليس لا تحسن الرقص . ولما توقفت الموسيقى قال لها وهو يقترب بها من الباب المفضى الى الحديقة :

ـ ان الجو هنا خانق .. ما رأيك فى لحظات نقضيها فى الحديقة حيث الهواء المنعش !

ثم قادها الى ظل شجرة كبيرة فى فناء المدرسة

وفى خلال هذا ، دخلت سيدة كانت واقفة فى مدخل الفناء ، الى قاعة الرقص وهمست شيئا فى اذن كاترين . وانطلقت الام الى الفناء مسرعة وهتفت تنادى آليس :

ـ آليس .. أين أنت ؟! تعالى الى هنا ..

ولما برز الشاب والفتاة من ظل الشجرة ، قالت كاترين لابنتها :

ـ أين كنت ؟!

ثم استدارت الى جيمى واردفت قائلة :

ـ اسمع أيها الشاب ، ابتعد عن ابنتى والا جلبت على رأسك وعلينا المتاعب .

وذابت رجولة جيمى ، وأحس كأنه صبى مذنب عاد الى بيته بعد محاولة للفرار ، ورغم تمرده على هذا الشعور ، فانه لم يستطع أن يفعل شيئا

ومضت كاترين بابنتها الى قاعة الرقص بالمدرسة وهى تقول لها بحدة :

ـ الم يحذرك ابوك من الحديث مع هذا الفتى ؟

ـ من هو يا أماه !

ـ انه جيمى مونرو ..

ـ لم اكن أعرف انه هو
ـ انه هو بالتأكيد .. ماذا كنتما تفعلان ؟
ـ كان يقبلني
وفغرت كاترين فاها وتمتمت في تعاسة :
ـ يا الهي .. يا الهي .. ماذا افعل الآن !
ـ هل أذنبت يا أماه ؟
فقطبت كاترين جبينها قائلة :

ـ لا .. لم تذنبي طبعا .. ولكن حذار ان يعلم أبوك بهـــذا ، لا تقولي له شيئا حتى لو سألك ، انه سـيجن لو عرف ، والآن .. اجلسي بجانبي طيلة الحفلة ولا تحاولي رؤية جيمي مرة أخـرى ، ولعل والدك لا يعرف شيئاً عما حدث ، يا الهي .. انني أرجو الا يخبره أحد بما حدث .

وعاد شارك في مساء يوم الاثنـين ، هبـط من القطار في بلدة سليناس ثم استقل السيارة الحافلة الى مدخل الوادي ، ثم هبط وحمل حقيبته ليقطع الاميال الاربعة حتى يصل الى بيته .

وكان الليل صافيا والسماء مثقلة بالنجوم ، وشعر كأن اصواتا خفية تنساب من التلال لاستقباله .. وافعم قلبه باحسـاس من البهجة جعله لا يشعر بطول المسافة الى بيته .

لقد كان مسرورا برحلته .. ذلك أن أقاربه استقبلوه كمايستقبل الاقارب الفقراء قريبـاً موفور الثراء .. ومن ثم احاطوه بالتقدير والاحترام ، راحوا يتهامسون ـ وهو يسمع بهمساتهم ـ عن مبلغ ثرائه .

ولما وصل في مسيره الى المتجر العام ، قرر ان يعرج عليه ليسمع آخر الانباء عن الوادي الاخضر من المستر آللين صاحب المتجـر ، وكان المعروف لدى الجميع أن للمستر آللين طريقة جذابة في تقديم ما لديه من أخبار ، بحيث يجعل أتفه خبر يبدو كأنه قصة مثيرة

ولم يكن في المتجر أحد غير صاحبه الذي كان جالسا على كرسي

متأرجح ، ينظر باهتمام وابتسام الى شارك وهو يقبل عليـه ، ثـم قال له :

ـ سمعت أنك كنت غائبا يومين عن الوادى يا شارك

ـ كنت فى اوكلاند .. ذهبت للتعزية فى موت عمتى .. ولم أنس أن أقوم ببعض العمليات المالية قبل ان اعود .

وظل آللين ينصت الى حديث شارك وهو يتظاهر بشىء من القلق ، ومن ثم قال له شارك :

ـ ماذا بك يا آللين ؟ هل حدث شىء ؟

وسرعان ما ارتسم على وجه آللين سمت الرجل الذى يعرف شيئا ولكنه لا يريد ان يذكره حتى لا يحرج سامعه ، وبدأت بوادر القلق تنوش قلب شارك وهو يتساءل :

ـ هل حدث شىء فى اثناء غيابى ؟

وهز آللين كتفيه وقال :

ـ لا شىء اكثر من حفلة راقصة فى المدرسة !

ـ لقد سمعت عنها .

وتململ آللين فى مكانه وكأن فى أعماق نفسه صراعا مريرا .. هل يخبره بما سمع أو يبقى ما يعرفه فى نفسه ! وراح شارك يرقب هذا الصراع على وجه آللين ثم قال بقلق متزايد :

هه .. ماذا حدث ؟

ـ سمعت أن زواجا سيعقد فى وقت قريب

ـ زواجا ؟ زواج من ؟

ـ زواج فتاة يهمك أمرها

ـ من ؟!

وهز آللين كتفيه كانما لم يعد يستطيع كبح جماح نفسه فقال :

ـ آليس

وتجمد شارك فى وقفته وراح يحملق فى وجه آللين كأنما يأبى أن يصدق ما سمع ، وفجأة تقدم نحوه مهددا وقال :

ـ ماذا تعنى ؟ اخبرنى .. ماذا تعنى بقولك هذا ؟

وأدرك آللين انه تجاوز الحد فى موقفه التمثيلى ، ومن ثم تراجع قليلا وهو يقول :

ـ حذار يا شارك .. حذار أن ترتكب شيئا تندم عليه .

وأمسك شارك بكتفى آللين وهزه بعنف قائلا بأنفاس لاهثه :

ـ اخبرنى ماذا تعنى بقولك هذا .. تكلم يا رجل .

ـ ان ما حدث كان فى الحفلة الراقصة .. فى الحفلة الراقصة فقط

ـ هل كانت آليس فى الحفلة الراقصة

ـ نعم

ـ وماذا كانت تفعل هناك ؟

ـ لا أعرف .. أعنى .. لا شىء

وعاد شارك يهزه بعنف وهو يقول له :

ـ اخبرنى .. ماذا حدث ؟

وهمهم الرجل العجوز فى خوف :

ـ انها لم تفعل شيئا أكثر من أنها خرجت الى فناء المدرسة مع جيمى مونرو

ومرة أخرى أخذ شارك يهز صاحب المتجر كما يهز الانســـان غرارة ارز ويهتف قائلا :

ـ تحدث .. ماذا فعل فى الفناء ؟

ـ انني لا اعرف ..

ـ اخبرنى

ـ حسنا .. ان المس بيرك .. المس بيرك تقول انهما كانا يتبادلان القبلات

وألقى شارك بالرجل من يديه كالغرارة ، وتهالك جالسا وقد بدأ عليه الذهول والضياع . وفيما كان يحملق فى وجه آللين ، كانت أفكاره مشغولة بطهارة ابنته ولم يخطر بباله ان القبلة لا تمس هذه الطهـــارة فى قليل أو كثير .. ودار بعينيه فى انحاء المتجر حتى استقرت نظراته على الخزانة الزجاجيـــة التى يحتفظ بها آللين

بالاسلحة النارية .. البنادق والمسدسات

ولمح آللين نظرات شارك واتجاهها ، ثم قال :

ـ حذار يا شارك ٠٠ ان هذه البنادق لا تخصك

ولم يكن شارك فى الواقع مشغول الفكر بالبنادق ٠٠ بل كان من فرط احساسه بالقلق لا يكاد يراها .. ولكن كلمات آللين جعلته يقفز نحو الخزانة ويفتح بابها ويختطف بندقية ثقيلة وصندوقا من الذخيرة ، ثم استدار ، دون ان يلقى نظرة على صاحب المتجر ، وانطلق يعدو فى الظلام

وفيما كان يندفع بخطوات سريعة نحو بيت برت مونرو ، كانت أفكاره تسابق خطواته ، وكانت هذه الافكار تؤكد له شيئا واحدا ، وهو انه لا يريد اطلاقاً أن يقتل جيمى مونرو .. بل ان فكرة القتل لم تخطر بباله الا عندما أوحى اليه بها آللين ، وبعد ان سار قليلا ، هدأت نفسه وزالت فكرة القتل تماما من ذهنه ، ولكن ماذا يفعل الآن ؟ ماذا يقول حين يصل الى بيت مونرو ! انه يخشى ان تخذله اعصابه فيطلق النار على جيمى حين يراه ، ومن يدرى .. فربما تطورت الامور بحيث يضطر الى الاحتفاظ بكرامته امام سكان الوادى

وسمع وراءه سيارة تنطلق بسرعة بالغة ، فمال على جانب الطريق ليفسح لها مكانا .. وعاد يفكر فى جيمى مونرو .. انه لا يشعر نحوه بأية كراهية .. ولكنه يشعر فقط بالحيرة فيما سيفعل مع ابنته .. انه يشعر انه فقدها الى الابد

وشاهد امامه الاضواء المنبعثة من بيت مونرو .. وفيما هو يقترب منه ، رأى رجلا يبرز اليه من راء شجرة ويهتف به :

ـ الق بالبندقية الى الارض يا شارك وسلم نفسك

وأطاع شارك الامر فورا وقد عرف أنه صادر من وكيل المأمور وقال له ببساطة :

ـ كيف حالك يا جاك .. ماذا حدث ؟

وارتسم الخوف على وجه شارك حين رأى وكيل المأمور يتقدم

نحوه ومعه عدد من سكان الوادى ، وكان بينهم برت مونرو بوجه شديد القلق

وقال برت مونرو لشارك :

ـ لماذا تريد أن تقتل جيمى مونرو يا شارك ؟ انه لم يسىء اليك ، وقد اخبرنى آللين بأنك تنوى قتله ، ولهذا جئت لاحملك الى المكان الذى لا تستطيع منه ان تعتدى على أحد

ورد وكيل المأمور قائلا :

ـ انك لا تستطيع ان تطلب سجنه يا برت . انه لم يفعل شيئا . ولكنك تستطيع فقط ان تطالبه بضمان مالى يمنعه من ايذاء ابنك .

فقال برت مونرو بصوت مرتعش :

ـ اذن سأفعل هذا

وقال وكيل المأمور :

ـ ويحسن ان تطالب بضمان مالى كبير . ان شارك رجل واسع الثراء ، هلم ، لسوف نأخذكما الى ساليناس الآن حيث يمكنك ان تقدم شكواك للسلطات القضائية

وعاد شارك فى صباح اليوم التالى الى بيته ورقد فى فراشه شاحب الوجه ذليل السمات ، مفتوح العينين ، زائغ النظرات ، متهدل الجسم ، وظل على هذا النحو ساعة بعد أخرى لا يتحرك يتكلم أو يريم . وظنته كاترين نائما .. ولما طالت رقدته ، تقدمت على أطراف أصابعها وهمست له حين رأت عينيه المفتوحتين :

ـ ان آليس بخير .. كان يجب أن تسألنى قبل ان تفعل شيئا

ولم يرد شارك .. ولم يتحرك من مكانه ، وعادت هى تقول :

ـ ألا تصدقنى ، اذا كنت ترتاب فى حديثى ، فامض بها الى أى طبيب تختاره

وتمتم شارك دون أن ينظر اليها :

ـ اننى أصدقك

وفجأة شعرت كاترين بموجة عارمة من الحنان تغمرها ، واذا هى تفعل شيئا لم يسبق ان فعلته فى حياتها الزوجية .. لقد

مضت الى السرير ووضعت رأس زوجها على حجرها كأنها أم حانية تهدىء من مخاوف ابنها

وعاد شارك يقول بصوت مفعم بالاسى والالم :

ـ اننى لا أملك أى مال ، لقد طالبونى أمام القاضى بضمان مالى لا يقل عن عشرة آلاف دولار ، ولم يسعنى الا أن أعترف بالحقيقة امامهم جميعا .. امام سكان الوادى جميعا .. اعترفت بأنى لا املك شيئا ، وان كل احاديثى عن الصفقات المالية وغيرها كان من تهاويل الخيال .. لقد عرفوا الحقيقة يا كاترين .. لم أعد الرجل الثرى البارع فى نظرهم

وأخذت كاترين تمسح على شعره برفق وهى تحس انها تملك الدنيا كلها بين يديها فى تلك اللحظات ، بل لقد احست انها غدت أكبر من الدنيا كلها ، وعاد شارك يقول لها :

ـ اننى لم أفكر فى ايذاء أحد .. بل لم يخطر ببالى اطلاقا ان أقتل جيمى مونرو .. ان كلمات آللين هى التى اوحت الى باختطاف البندقية .. ولكننى لم أفكر فى قتله ابدا

وصمت برهة لاهث الانفاس قبل أن يستطرد قائلا :

ـ اننى فى الحقيقة أحب برت مونرو منذ ان وفد الى الوادى .. انه رجل لطيف المعشر ، عانى كثيرا فى حياته من سوء الطالع .. فكيف افكر فى قتل ابنه جيمى .. لقد كنت أوشك ان استدير عندما وصلت الى مشارف بيته ثم أعود الى بيتى ، ولكننى .. ولكننى ..

ومرة أخرى توقف شارك عن الحديث حتى يلتقط انفاسه ثم اردف يقول :

ـ ولكننى فوجئت بوكيل المأمور وبعض سكان الوادى ومعهم برت مونرو ، والآن .. ان الجميع يعرفون الحقيقة .. يعرفون اننى لا أملك أى مبلغ من المال أكثر مما أحتاج لقوت يومى

وفاضت مشاعر الحنـــان فى قلب كاترين .. وفجأة ادركت بوضوح ماذا يمكن ان تفعل .. بل ماذا يجب أن تفعل ، ومن ثم

قالت بلهجة جادة حاسمة :

ـ ان الفرصة لم تسنح لك .. لقد عشت حياتك كلها فى هذه المزرعة الصغيرة القديمة دون ان تتاح لك أية فرصة لجمع ثروة .. فمن أدراك أنك لا تستطيع أن تجمع ثروة طائلة ، اننى أعتقد أن هذا فى مقدورك .. بل أعرف ان هذا ممكن اذا حاولت ..

وانثالت فى جسمها قوة روحية هائلة جعلتها تستطرد قائلة وهى تواصل المسح بيدها على جبينه :

ـ لسوف نرحل من هنا .. سنبيع هـــذه المزرعة ونمضى الى المدينة ، وهناك ستتاح لك فرصة الحصـــول على ثروة .. اننى واثقة بمواهبك وامكانياتك

وزالت من عينى شارك نظرات اليأس ، وشعر فجأة بالقوة تعود الى جسمه المتخاذل ، ونظر الى كاترين ودهش لما رآه من جمالها فى تلك اللحظة ، وفيما هو ينظر اليها ، انتقلت اليه روح التصميم والرغبة فى الكفاح للحصول على ثروة حقيقية بدلا من الوهميـــة التى ضاعت منه

وقال بصوت كله الحزم :

ـ سنرحل يا كاترين .. سنبيع المزرعة ونبدأ حياة جديدة فى المدينة ، وسيعرف سكان الوادى أى رجل أنا ؟

الفصل الثالث

الغـــوريـــلا

كان لفرانك جوينر أحد أصحـــاب المزارع فى الوادى الاخضر ، عامل هندى مولد يدعى بانش ٠ وفى كل ثلاثة أشـــهر كان بانش يحمل مدخـــراته ويذهب الى مونتريرى حيث يعترف للقس بآثامه كلها ، ثم ينفق مدخراته فى الاشهر الثلاثة على الخمر ، وبعد يومين أو ثلاثة من السكر الشديد ، يلقى بنفسه فى مركبته ـ اذا أفلت من المبيت فى السجن ـ يترك لجواد المركبة العنـــان ليعود به الى مزرعة فرانك جوينر

وكان الجواد ، عادة ، يصل الى المزرعة قبل مطلع الفجر ، وهناك يتناول بانشو طعام الافطار ويمضى الى عمله وكأنما لم يحدث شيء ٠ وفى المعتاد يكون بانشو مستغرقا فى النوم حين يصل به الجواد الى المزرعة ٠ ولهذا السبب دهش فرانكجوينر ، مخدومه ، حين فوجيء به ذات صباح مبكر يهرع اليه مستيقظا تماما ٠٠ وصائحا أيضا :

ـ مستر جوينر ٠٠ أدركنى ٠٠ أدركنى يا مستر جوينر

وعرف فرانك جوينر منه أنه ســـمعه ـ وهو يقترب من منطقة « بلاك » المظلمة دائما ، عويل طفل وليد فى دغل بجوار الطـريق ، وتصـــادف أن بانشو كان مستيقظا ومتنبها ، فوقف الجـواد ، وهبط ليتحرى الامر ، وما لبث أن عثر على طفل وليـــد ملقى تحت احدى الشجيرات ولا يزيد عمره على ثلاثة أشهر ، وأشـــعل بانشو عود ثقاب وحمل الوليد وراح يحملق فيه ٠٠ وفجأة سمعه يقـول له بصوت أحسن :

ـ أترى ٠٠ اننى الغوريللا ٠٠ ولى أنياب يمكن أن تنهشك

وألقى بانشو بذلك الشيء المرعب وقد اصطكت أسنانه ، ووثب

الى المركبة وانطلق بها هارعا الى المزرعة ، مستنجدا بفرانك من شر ما رأى وراح فرانك جوينر يفكر مليا فى حديث بانشو ·· وخطر بباله فى أول الامر أن الرجل مخمور ·· ولكن بانشو كان متنبها وأسنانه لا تزال تصطك · وقرر فرانك أخيرا أن يذهب الى المكان المسمى « بلاك » ليتحرى بنفسه الامر · وذهب وعاد حاملا طفلا وليدا فى نحو الشهر الثالث أو الرابع من عمره ·· ولم يكن يصدر من الاصوات الا عويل الاطفال الجائعين ، ولم تكن له أنياب على الاطلاق

ومع هذا فقد ظل بانشو يؤكد لكل من يقابله أن الطفل حدثه بصوت أجش ، وأنه قال عن نفسه انه غوريللا بأنياب حادة

والواقع أن الطفل كان أقرب الى قرد وليد منه الى طفل بشرى ·· كان طويل الذراعين ، داكن اللون ، طويل الوجه ، غائر العينين بارز اللثة ·· مما ينبىء بأنه سيكون بارز الاسنان أيضا حين تنبت له أسنان ·

وقرر فرانك أن يسميه الغوريللا · ولكن سكان الوادى احتجوا عليه وقرروا أن يسموه تورلاسينو ·· أى الضفدع الصغير

ولم يعرف أحد قط من هو الذى ألقى بالطفل فى ذلك المكان المظلم ، أو من هى أمه · وهكذا بدأ الطفل ينمو فى مزرعة فرانك تحت رعاية بانشو الذى ظل يخافه ، لا ينسى اطلاقا حديثه الاول معه !

ونما الطفل بسرعة ، ولكن عقله توقف عن النمو بعد أن بلغ الخامسة من عمره ·· وفى السادسة كان فى مقدور تورلاسينو أن يقوم بالاعمال اليدوية كأى رجل · كانت أصابعه الطويلة الشبيهة بأصابع الغوريللا أقوى من أصابع أى رجل · وهكذا راح فرانك يستغله فى العمل بالمزرعة · والعجيب أن أصابع الصبى التى كان يمكنه بها قطع رأس أى دندى فى لحظة ، كانت رقيقة جدا مع أعواد النبات ، فلم يحدث قط أن أذى نبتة أو كسر عودا أو اقتلع شجيرة نافعة · والاعجب من هذا أنه كان قادرا على استعمال ظفر

ابهامه القوى فى حفر وتشكيل التماثيل الحيـــوانية الصغيرة من الحجارة الرملية • ولا يزال بيت فرانك جوينر محتفظا بالكثير من هذه التماثيل •• تماثيل الثعالب الامريكية ، والاسود الجبليـــة ، والصقور والدجاج • وكان بانشو يرجع مهارة الصبى فى هذا الفن الى أجداده الابالسة الذين انحدر عنهم

ورغم أن سكان الوادى الاخضر كانوا لا يؤمنون ـ بطبيعة الحال ـ بأن تولارسينو ينحدر من أصول ابليسية ، الا أنهم كانوا يشعرون بالحرج والتـــوتر أمامه . وكانت عيناه الفائرتان ، وجسمه القوى ومواهبه الخفية فى النحت ، تجعل الاطفال يتجنبونه ، والكبـــار يتحرجون منه

وكان الغلام هادئا بطبيعته الى حد كبير • ولكنه كان يثور بعنف وجنـــون اذا حاول أحـــد ، أيا كان أمره ، أن يمس بالسوء أحـــد التماثيل التى ينحتها بظفره أو الصور البدائية التى يخطها بالقـلم على الورق

وفى المرات الثلاث التى ثار فيها بهذا العنف وقد برقت عينـاه وأطلت منهما نظرات قاتلة ، تمكن فرانك وبانشـو من تقييد يديه ورجليه وتركه حتى يهدأ أو حتى يندم على ما فعل

وكان على تولارسينو أن يذهب الى المدرسة بحكم القانون وهو فى السادسة من عمره • ولكن الصبى رفض الذهاب • وبذلت سلطات الشرطة والمسئولون عن التعليم فى الوادى جهودهم طيـــلة خمس سنوات لاقناع فرانك والغلام بأن التعليم أساسى فى حيـــاة المرء كالطعام والشراب • وفى خلال هذه السنوات كان الغلام يذهب الى المدرسة يوما ويهرب منها أسبوعا •• ولما بلغ الحادية عشرة وقـد أصبح فى قوة ثور أو غوريللا حقيقية ، قرر أن ينتظم فى المدرسـة وهو يدرك تماما أن أحدا لن يستطيع أن يمسه بسوء أو أن يسخر منه أو يتندر عليه

ورغم أن تولارسينو لم يتعلم شيئا فى المدرسة ، الا أن موهبته فى الرسم ظلت تنمو باطـــراد • ولما اكتشـــفت المس مارتن ،

المدرسة ، هذه الموهبة ، أعطته قطعة طباشير وطلبت منه أن يرسم على السبورة بعض الحيوانات والطيور • وبعد انصراف التلاميذ من المدرسة ، شرح تورلاسينو فى تغطية السبورة وجدران الفصل بألوان وفنون من الصور والرسومات • وهكذا فوجىء التلاميذ والمدرسة فى صباح اليوم التالى برؤية حشود وطوابير من الحيوانات الزاحفة ، والطيور المحلقة ، والاسود والغزلان والثعالب والقطط البرية والابقار والافاعى •• كلها مرسومة بدقة وبراعة مذهلة

وذهلت المس مارتن من موهبة تولارسينو ، وراحت تمتدحها أمام تلاميذ الفصل ، وتشرح طبيعة كل حيوان ، وطير مرسوم ، وقال الغلام مزهوا :

ـ أستطيع أن أرسم أكثر من هذا

وربتت المدرسة كتفه قائلة :

ـ نعم •• سوف ترسم •• سترسم كل يوم • ان الله منحك موهبة عظيمة

وسر من هذه العبارة الاخيرة ، فنظرت فى عينيه طويلا وقالت تكررها :

ـ ان الله منحك موهبة عظيمة يا تولارسينو

ثم أردفت قائلة للتلاميذ :

ـ والان حانت حصة الحساب ••

واندفع بعض التلاميذ الى السبورة يزيلون ما فوقها من رسوم ليفسحوا مكانا للارقام ، ولكنهم ما كادوا يبدءون فى الازالة حتى انقض تولارسينو عليهم •• وكان يوما رهيبا •• لم يستطع تلاميذ المدرسة جميعا ، ولا الفراش أو المدرسة أن يتغلبوا على الغلام الغوريللا •• لقد كان يصارعهم بيديه وأسنانه وقدميه •• وانثالت أنهار من الحبر ، وتحطم عدد كبير من المقاعد والمكاتب •• وانتهت المعركة بأن هرب جميع من كان فى المدرسة تاركين اياها للوحش الصغير

ولما خلت المدرسة ، أغلق تولارسينو الباب من الداخل ، وشرع

يكسو جدران الفصول برسومه المختلفة وهو يمسح عن وجهه وعينيه آثار دمار المعركة

وفى المساء ذهبت المس مارتن الى فرانك جوينر وطالبته بأن يجلد الوحش الصغير تولارسينو جزاء ما جنت يداه ، وقال له جوينر :

ـ هل تريدين منى أن أجلده بالسوط يا مس مارتن ؟

فزمت المس مارتن شفتها برهة ثم قالت :

ـ نعم يا مستر جوينر ! لو أنك رأيت ما فعله هذا الغلام بنا اليوم لأدركت أنه فى حاجة الى العقاب

وهز جوينر كتفيه واستدعى تولارسينو اليه ، ثم تناول من الجدار سوطا من سياط الخيل ، وراح يهوى به على ظهر الغلام فى ضربات متوالية • وكان الغلام يتحمل الضربات بابتسامة بلهاء • بينما كانت المس مارتن تنظر الى ما يجرى أمامها وكأنها فى حلم

وبعد أن كف جوينر عن الضرب ، انصرف تولارسينو بهدوء • وصاحت المس مارتن :

ـ عجبا انه ليس من البشر اطلاقا •• لقد تلقى الضربات كالكلب، دون أن يحتج حتى بالبكاء

وقال لها جوينر :

ـ اذا كان حيوانا فهو حيوان طيب مسالم •• لقد طلبت منه يا مس مارتن أن يرسم حيوانات •• ثم أردت أن تزيلى رسوماته •• وهو يكره هذا

وقبل أن تقول المس مارتن شيئا ، أسرع جوينر يقول :

ـ ان المدرسة لا تفيد تولارسينو شيئا • انه لا يفهم من دروسكم شيئا • ولكن الله منحه موهبة خاصة ، يستعمل فيها يديه • انه ليس معتوها وان كان عقله لم ينم نموا طبيعيا

وقالت المس مارتن :

ـ ولكن القانون يقول ان تورلاسينو لابد أن يبقى فى المدرسة حتى الثامنة عشرة من عمره •• أى أن عليه أن يبقى سبع سنوات

أخرى فى الفرقة الاولى دون أن يفهم شيئا

وبعد برهة أردفت المس مارتن قائلة :

ـ هذا ما يقوله القانون ٠٠ أما رأيى أنا ، فانى أفضل أن يودع فى زنزانة ، لانه مخلوق شديد الخطر على الغير ٠٠ ولو أنك رأيت ما فعله بنا اليوم ، لأدركت شعورى

ـ لا يا مس مارتن ٠٠ ان من حقه أن يعيش طليقا ، انه ليس خطرا على أحد ، وليس فى الوادى كله انسان يحسن فلاحة البساتين مثله ، أو يحلب البقر ببراعته أو يروض جوادا شموسا بنفس قوته ، أو يدرب كلبا دون أن يضربه بالسوط ومع ذلك فلا بد ـ طبقا للقانون ـ أن يقضى فى المدرسة سبع سنوات أخرى فى الفرقة الاولى يردد كالببغاء زاى ـ راء ـ عين ـ زرع ٠ ولو كان خطرا كما تظنين لقتلنى وأنا أجلده بالسوط

وهزت المس مارتن كتفيها فى يأس ، ثم انصرفت لتجد تولارسينو أمامها فى صباح اليوم التالى بالمدرسة يقول لها وهو يشير الى الجدران المكسوة برسوماته :

ـ أترين ؟ اننى أستطيع أن أرسم أكثر من هذا ٠ ولكن لا يوجد مكان

واستغنت المس مارتن عن السبورة للتدريس ، واستبدلت بها الاوراق والاقلام ٠ وفى نهاية السنة الدراسية ، قدمت استقالتها ، ورحلت عن الوادى الاخضر

وكانت المس مورجان ـ المدرسة الجديدة ـ شابة فى نحو الثلاثين من عمرها ، على جانب كبير من الجمال مما جعل الآباء فى الوادى يخشون أن يفتتن بها أبناؤهم البالغين سبع عشرة سنة فى الفرقة النهائية

ولكن المس مورجان كانت مدرسة تحب عملها وتتقنه وتعرف كيف تسيطر على الفصل وتضع كل تلميذ ، صغيرا كان أم كبيرا ، فى موضعه

ومن اللحظة الاولى ترك تولارسينو أثرا عميقا فى نفس المس

مورجان لقد عرفت الكثير عنه ، وقرأت الكثير من الكتب الخاصة بمعاملة أمثاله من المتخلفين ذهنيا • ولما عرفت بأمر المعركة التى دارت فى المدرسة ، خصصت له مساحة معينة حول السبورة ليرسم عليها ما يشاء من حيواناته • ولما امتلأت اشترت له كراسات للرسم وأقلاما ملونة ليشبع فيها هوايته ، ولم يعد هو بعد ذلك يوجع رأسه بالهجاء أو نطق الكلمات ، وانما اكتفى باشباع هوايته فى الرسم والنحت ، وكانت المس مورجان تعلق لوحاته فى المدرسة باعتبارها أعمالا فنية تستحق التقدير

واستقبل التلاميذ ، على اختلاف أعمارهم ، الاسلوب التعليمى الجديد للمدرسة الجديدة ، بالحماس والاعجاب • وقد بلغ اعجابهم بها أنهم قرروا الاقلاع عن الشغب وعن التفكير فى الهرب منها •

وكانت المس مورجان قد أدخلت أسلوبا جديدا للتدريس بعد الفراغ من الحصص الاولى •• كانت تقرأ للتلاميذ فصولا مسلسلة من روائع الاداب العالمية فى فن القصة ، مثل ايفانهود النميمة ، وقصص صيد وحوش البحار للروائى زان جراى ، وقصص جيمس أوليفر كروود المشوقة مثل « ذئب البحر » و « نداء البرارى » ولكن تولارسينو لم يكن يهتم بشىء من هذا كله ، لانه لم يكن قادرا على تتبع هذه الفصول بذهنه المتخلف ، ومن ثم كان يكتفى بالرسم

وبعد أسابيع رأت المس مورجان أنها أسعدت التلاميذ الكبار على حساب زملائهم الصغار ، ومن ثم قررت أن تقضى نصف ساعة بعد ظهر كل يوم فى قراءة « القصص الخرافية » لصغار التلاميذ •• مثل أليس فى بلد العجائب ، ورحلات جاليفر

وفوجئت المس مورجان بتولارسينو يهتم بقصصها الخرافية هذه وينصت بشغف الى حكاياتها العجيبة عن الاقزام وعقلة الاصبع والساحرات والحوريات وجنيات البحر • وكان أشد ما استهواه من هذا كله حكاياتها عن المخلوقات الصغيرة ـ الاقـزام ـ التى تعيش تحت الارض ، عن حياتها وطباعها وحروبها وغرامياتها

وكانت المس مورجان ، بعد انصرافها من المدرسة ، تسير نحو

نصف ميل ، لتصل الى مسكنها المفروش فى احدى مزارع الوادى ، وكانت تحب السير بمفردها حيث تستنشق هواء التلال المنعش ، وتنعم بزقزقة العصافير ، وتمتع النظر بالخضرة والاشجار والخمائل والجداول ، وتسعد القلب بشذى الازهار البرية وبذلك العطر الخفى المنساب من الارض الخضراء

وفى ذات يوم بعد الظهر ، صعدت الى تل من الصخور الجيرية وراحت تنقش على قطعة حجرية فى قمته الحروف الاولى من اسمها • ووخزت شوكة أصبعها فسألت منها قطرات من الدم تشربتها الصخرة الجيرية • ومن ثم نقشت على الصخرية هذه العبارة « لقد تركت هنا جزءا من نفسى »

وفى تلك الليلة ، كتبت فى مفكرتها تقول :

« ان الانسان بعد أن يشبع رغباته الطبيعية ، يحب دائما أن يترك وراءه أثرا ، أو ربما دليلا على أنه كان حيا فى يوم ما •• انه يترك هذا الدليل على الخشب أو الحجارة أو الورق أو فى حياة غيره من الناس ، ان هذه الرغبة العميقة تكمن فى نفس كل انسان ، ابتداء من التلميذ الذى يكتب الكلمات السخيفة فى دورة المياه الى الاله بوذا الذى يترك صورته محفورة فى قلب كل تابع له • ان الحياة تبدو فى كثير من الاحيان غير حقيقية ، ولهذا فنحن نجاهد دائما لنثبت لانفسنا أننا حقا نعيش »

وفيما كانت عائدة بعد ظهر أحد الايام الى مسكنها ، فوجئت بوجه تولارسينو يبرز من دغل على جانب الطريق ، فقالت له باسمة :

ــ لقد أفزعتنى يا تولارسينو

ووقف تولارسينو يبتسم فى خجل ويختلس النظر الى المس مورجان التى تبينت فجأة أن الطريق خال ، فامتلأ قلبها بخوف وهى تقول :

ــ ماذا •• ماذا تريد يا تولارسينو ؟

ولم يجب الغلام • وانما اتسعت ابتسامته فقط • وعادت المس مورجان تقول :

ـ هل كنت تجلس هنا فقط ٠٠ أم ٠٠ أم تريد شيئا ؟

وحاول الغلام أن يقول شيئا ، ولكنه لم يستطع ، فقالت هى :

ـ حسنا ٠٠ اذا لم يكن لديك ما تريد أن تقوله ٠٠ فسوف أمضى

وقبل أن تنطلق هاربة ، استطاع الغلام أن يقول :

ـ عن هؤلاء المخلوقات ٠٠

ـ اية مخلوقات ؟ ماذا تعنى ؟

ـ المخلوقات الصغيرة التى تحدثيننا عنها من الكتاب

وابتسمت المس مورجان فى شىء من الاطمئنان وقالت :

ـ أتعنى سكان باطن الارض ٠٠ الاقزام ؟

ـ نعم

ـ ماذا تريد منهم ؟

فقال بنفس نبرات الصوت الرتيبة التى لا ترتفع أو تنخفض ٠

ـ اننى لم أر واحدا منهم

ـ انهم لا يظهرون عادة للناس

ـ ولكننى عرفت الكثير عنهم ٠٠

فضاقت عيناها وتمتمت بفضول :

ـ أحقا ؟ ومن اين عرفت هذا الكثير عنهم ٠

ـ من لا شىء

ـ اذا كنت لم ترهم ، ولم يخبرك أحـــد عنهم بشىء ؟ فكيف عرفت الكثير من أمرهم

ـ يكفى أنى أعرفهم ٠ وربما سمعتهم ٠٠ ألم تقرئى لنـــا الكثير عنهم فى الكتاب

وفكرت المس مورجان « لماذا أصدم هذا الغلام المســـكين فى خيالاته عن هذه المخلوقات ٠ ألا يمكن أن تمتلىء حياته بالسعادة والمتعة اذا آمن بوجودهم ؟ وأى ضرر يمكن أن يحدث له فى هذه الحالة ؟ »

وقالت له بصوت مسموع :

ــ هل حاولت البحث عنهم ؟

ــ لا ٠٠ كنت أعلم عنهم فقط ٠٠ ولكننى سوف أبحث عنهم منذ اليوم

وشعرت المس مورجان بطرافة الموقف ٠٠ انهـــا الان تواجه حقيقة تقترب من الخيال ٠٠ أنها تعيش فى تلك اللحظة فى قلب قصة جميلة يمكن أن تكتبها يوما ٠ ومن ثم عادت تقول :

ــ وأين ستبحث عنهم ؟

فقال تولارسينو بهدوء :

ــ سأحفر فى الارض ٠٠

ــ ولكن الاقزام الصغيرة لا تخرج من باطن الارض الا ليلا ٠ يجب أن تبحث عنها ليـــلا ٠ واذا رأيت بعضـــا منها فتعال واخبرنى

ــ سوف أخبرك

وتركته يحملق وراءها ٠ وكانت طيلة المســـافة الى مسكنها تتخيله يبحث عن الاقزام الصغيرة فى الارض ليلا ٠٠ وسترتهـــا هذه الصورة الخيـــالية ٠ فمن يدرى فربما عثر على عالم الاقزام الخفى ٠٠ وربما عاش فى هذا العالم ٠٠ فيتحدث معهم ، ويفهمهم ٠٠ ويفهمونه ! لقد استطاعت بكلمات قليلة موحية أن تضفى الخيال على حياته ، وأن تملأها بالترقب والبهجة ، وأن نفصلها عن هذه الحياة الجافة المحيطة به

وفى المساء ارتدى تولارسينو معطفه وحمل الجـــاروف ٠ ورآه بانشو وهو يغادر البيت ، فقال له :

ــ الى اين أيها الضفدع الصغير !

وتململ تولارسينو وقال :

ــ اننى خارج فى الليل ٠٠ هل هناك ما يمنع ؟

ــ ولكن لماذا تأخذ الجاروف ؟ هل عثرت على منجم ذهب ؟

وقال الغلام بصوت حازم جاد :

ـ اننى ذاهب للبحث عن المخلوقات الصغيرة التى تعيش فى باطن الارض

وهنا قال بانشو وقد انزعج :

ـ اسمع يا ضفدعى الصغير ·· انصت الى صديقك العجوز ·· الى أبيك فى الله · لا تذهب · لقد عثرت عليك فى البرارى وأنقذتك من أهلك الأبالسة · انك الان أخى فى الانسانية · لا ترجع الى أهلك القاطنين تحت الارض ·· أنصت الى صديقك العجوز بانشو ··

وحملق تولارسينو فى الارض وراح يعتصر ذهنه ليفهم دلالة الحديث الذى سمعه ثم قال :

ـ لقد قلت ان سكان باطن الارض هم أهلى · وهذه هى الحقيقة لانى لست مثل الآخرين فى المدرسة ، وأنا أعرف هذا · اننى اشعر بالشوق الدائم الى أهلى القاطنين فى باطن الارض الرطيب · وأنا أعتنى دائما كلما رأيت جحرا فى الارض أن أدخل فيه واختفى عن عيونكم ·· تماما مثل أهلى · ولهذا يجب أن أعود اليهم يا بانشو

وتراجع بانشو عنه وهو يرسم علامة الصليب فى الهواء ويقول :

ـ اذن عد الى أبيك الشيطان يا ضفدعى الصغير · اننى لا أصلح لمقاومة الشيطان · ان المقاومة تحتاج الى قديس · ولكننى أرسم علامة الصليب لتحفظنى منك ·· ومن أهلك ·

وابتسم تولارسينو بحزن ، واستدار ومضى نحو التلال

كان قلبه يكاد ينفجر بالبهجة كلما اقترب خطوة نحو أهله · لقد عاش حياته كلها منعزلا ، منبوذا ، اما الان ، فانه يمضى الى عشيرته ، وكان كالمعتاد يسمع هذه الاصوات الصادرة من جوف الليل ·· أصداء جرس بقرة من بعيد ، وهمهمة حيوان صغير ازعجته خطوات تقترب ·· وعويل خافت لثعلب صغير جائع ، والاف هذه الاصوات الصغيرة الخافتة المنبعثة من الاف الحشرات

فى جوف الليل • ولكن تولارسينو لم يكن مهتما بهذه الاصوات كلها • وانما كان يرهف سمعه الى أصوات أخرى •• أصوات مخلوقات تسير على قدمين •• وتتحدث بلغة يفهمها هو

وتوقف مرة وهتف قائلا :

ـ أبى •• لقد جئت ••

ـ ولكنه لم يسمع ردا • وكان كلما رأى حفرة ، هتف فيها :

ـ يا أهلى وعشيرتى •• أين أنتم ! اننى أنا •• تولارسينو •• عائد اليكم !

ولم يسمع اجابة من أحد .. واسوأ من هذا شعر أن هذه المخلوقات الصغيرة التى ينتمى اليها ، لا تحس بمقدمه • وكذلك شعر انه لا يقترب منهم • لقد كان يدرك أن هناك حمامة تزق صغارها بالقرب منه •• وكان يشعر ان قطا بريا وراءه يتحفز للانقضاض على أرنب غافل • كان يشعر بما يجرى حوله دون أن يرى •• ولكنه ، للآن ، لم يكن يشعر بالاقتراب من أهله وعشيرته

وظهر فى السماء القمر ربيعا ••

وهمس تولارسينو لنفسه قائلا :

ـ الان سوف تخرج الحيوانات لتأكل وتشرب •• وسيخرج أهلى معهم

ووصل فى مسيره الى مشارف بستان فاكهة كثير الشجر •• وكان بستان برت مونرو • وكان تولارسينو قد اعتاد فى ليال كثيرة أن يأتى الى مشارف هذا البستان ، ويجلس تحت أشجاره الفواحة بالعبير ، ويعيش فى عالم من خياله يلتقط فيه النجوم بأصابعه !

وما ان وصل الى حافة البستان حتى غمره الشعور بأنه وصل الى المكان الذى تعيش فيه عشيرته • وازداد هذا الشعور فى نفسه لحظة بعد أخرى ، ومن ثم راح ينادى عليهم دون أن يسمع مجيبا • وأخيرا قال لنفسه :

ـ لعلهم لا يحبون ضوء القمر • ولهذا فهم باقون فى بيوتهم تحت الارض

وراح بجوار شجرة خوخ يحفر •• وحفر حفرة اتساعها ثلاثة أقدام ، ثم راح يعمقها تدريجا طيلة الليل • وكان يرهف السمع بين الحين والاخر ، ورغم أنه لم يكن يسمع شيئا ، الا انه كان يشعر بأنه يزداد اقترابا منهم • ولما انبلج الفجر ، كف عن الحفر، وتراجع الى دغل برى حيث رقد لينام الى حلول الليل

وفى الضحى ذهب برت مونرو الى مشارف بستانه ليفتش على فخاخ الثعالب ، وهناك رأى الحفرة العميقة بجوار شجرة الخوخ فهتف لنفسه :

ـ ما هذا بحق السماء ! لعل بعض الاطفال كانوا يحفرون نفقا •• ولكن هذا خطر عليهم •• فربما ينهار فوق رءوسهم

وعاد الى البيت وحمل جاروفا ورجع الى الحفرة فردمها

وفى البيت قال لابنه الاصغر :

ـ مانى .. هل كنت تحفر مع أصدقائك نفقا فى البستان ؟

ـ لا ••

ـ هل تعرف من فعل هذا ؟

ـ لا

ـ لقد حفر بعضهم حفرة عميقة فى مشارف البستان • وهذا خطر • قل لاصحابك أن يكفوا عن هذا اللعب الخطير

وجاء الليل •• ومضى تولارسينو الى حفرته •• واستشاط غضبا حين وجدها مردومة .. ولكنه لم يلبث أن ضحك جذلا وقال لنفسه :

ـ ان اهلى هنا • ولكنهم لا يعرفون من حفر هذه الحفرة ، ولهذا بادروا الى ردمها خوفا على حياتهم • ولهذا سأختبىء قريبا لاراهم وهم يردمونها ، ثم أخبرهم من أنا • ولسوف يفرحون بى • !

وعاد تولارسينو يحفر •• وجعل الحفرة هذه المرة أشد عمقا • وعند الفجر تراجع ليستريح • ولما اشرقت الشمس ، راح يختلس

النظر الى الحفرة ليرى أهله وهم يعودون لردمها

وخرج برت مونرو كعادته فى الصباح لينظر فى حالة فخاخ الثعالب ، ورأى الحفرة مرة اخرى ٠٠ وراح يردمها بقدمه ريثما يعود ليأتى بالجاروف ، وسمع زمجرة قريبة ٠ وسرعان ما رأى شبحا ينقض عليه بجاروف ثقيل

ولما ذهب جيمس مونرو لينادى على أبيه ، رآه ملقى بجـــوار حفرة عميقة والدماء تسيل من رأسه ، بينما كان شخص ما يلقى من داخل الحفرة بالطين الى الخـــارج ٠ وظن جيمس أن ذلك الشخص هو الذى قتل أباه وهو الذى يحفر حفرة ليوارى فيها الجثة

وانطلق عائدا الى بيته واستدعى بالتليفون عددا من الجيران ٠ وما هى غير دقائق حتى كان ثمانية من الرجال يقتربون بحذر من الحفرة ٠ وقاومهم تولارسينو بقوة الاسد الجريح ، ولم يســتطيعوا التغلب عليه الا بعد أن ضربوه على رأسه بجاروفه ٠ ثم قيــدوه وحملوه الى السجن

وفى مدينة ساليناس اجتمعت لجنة من الاطباء لفحص الغـــلام ولتوجيه الاسئلة اليه ٠ وكان الغلام لا يرد على الاسئلة ويكتفى بابتسامة بلهاء ، وقال فرانك جوينر ما يعرفه عن الغلام وطلب أن يسلم اليه ليكون تحت رعايته

ولكن رئيس اللجنة قال :

ـ هذا غير ممكن يا مستر جوينر ٠ انك تقول ان الغلام كان طيبا هادئا ٠ ولكنه حاول أمس أن يقتل مواطنا ٠ ومن المحتمل أن تنتهى محاولتـــه مرة أخـــرى الى جريمـــة قتل كاملة ٠ ولهذا لا يسعنا الا التوصية بحجزه فى مستشفى الامراض العقلية بمدينة نابا !

الفصل الرابع

لا أريده حيوانا

كان جونيوس مالبى شابا فى مقتبل العمر ينحـــدر من أسرة طيبة ويتمتع بميل غريزى نحو الثقافة والاطلاع . ولما مات ابوه مفلسا ، وجد نفسه مضطرا للعمل كاتبا فى احدى الشركات لمدة خمس سنوات

كان يعود من عمله الى غرفته المفروشة منهوك القوى . ولكنه كان يقضى نصف الليل فى قراءة الادب العالمى ، ومن فرط اعجابه بقصة « رحلات مع حمار » لستيفنشن ، قرأها عدة مرات .

وفى ذات ليلة ، وهو يقترب من السادسة والعشرين من عمره . سقط مغشيا عليه امام باب غرفته المفروشة . وفحصه أحـد الاطباء ، وقال له مشفقا :

ـ ان هواء المدن لا يناسب صدرك الضعيف . اذا لم تعش فى الريف ، فان حياتك لن تطول

وشعر جونيوس بالبهجة لما سمع .. لقد وجد المبرر الــذى جعله يقطع هذه الاربطة الخفية التى تشده الى المدينة ، ويبحث عن مكان هادىء فى الريف يبدأ فيه الحياة من جديد

وكانت كل مدخراته لا تتجاوز خمسمائة دولار ، وسأل بعض زملائه عن مكان ريفى يعيش فيه ، ونصحه البعض بالـذهاب الى الوادى الاخضر ، أو جنة السماء ، حيث تطيب فيه الحياة لأمثاله.

وأعجبه الاسم ، واعتبره فألا حسنا فى كلتا الحالتين : فى الحياة جنة ، وفى الممات جنة . ومن ثم لم يتوان فى جمع حاجاته البسيطة ، والاسراع الى الوادى الأخضر ليقيم فى غرفة مفروشة مع احدى الاسر

وكان بالوادى بضع عائلات تؤجر غرفا مفروشة فى مزارعها ٠ وبعد أن قام جونيوس مالبى بجولة فيها ، وقع اختياره على غرفة مفروشـــــة ملحقة بمنزل صغير لأرملة فى منتصف العمر تدعى المسز كويكر

وكانت للمسز كويكر مزرعة صغيرة يمر بها جدول رقراق ، وتحف بها أشجار وارفة الظلال ، ويعمل فيها أجير مكسيكى

ولم يمض على جونيوس غير شهرين حتى بدا كأنه ولد من جديد فقد تحول وجهه الشاحب الى حمرة وردية تنم عن الصحة والعافية، وامتلأ جسمه النحيل واستقام عوده ، وأكثر من هذا كان جونيوس سعيدا بحياة الكسل والرفاهية والوقت الطويل الذى كرســـه للقراءة والاطلاع واعادة قراءة « رحلات مع حمار » مرة بعد أخرى

وبلغ من وفرة صحته أنه لم يعد فى حاجة الى نظارة بعد أن صحت عيناه وزال عنهما الضعف ٠ وكان يقضى سحابة نهاره جالسا على ضفة الجدول مدليا قدميه الى مياهه الباردة ، مستمتعا بالظل الوارف ، والهواء المنعش والشذى المنســـاب من كل شىء حوله ، والكتاب الذى يحمله على أجنحة الخيال الى كل مكان فى الدنيا

ولكن المسز كويكر ، وكانت سيدة متوسطة الجمال ، طيبة القلب ، بدأت تشعر بالحرج مما قد يقوله جيرانها وهى تعيش فى مكان واحد مع شاب أعزب يصغرها بخمسة أعوام ٠ وفاتحته فى الامر ٠٠ وأدرك الهدف الذى يكمن فى حديثها ٠٠ ورحب به لانه كان يتمنى هـــــذا فى قرارة نفسه ، وسرعان ما تم زواجهما ، وأصبحت المسز كويكر ٠٠ المسز مالبى ٠

وشعر جونيوس أن الحياة ابتسمت له أخيرا ٠٠ وانه قد صار فى مقدوره أن ينعم بها مستريحا خاليـــا من أى قلق على لقمة العيش ، مطمئنا الى بيت دائم يأوى اليه كلما أراد ٠٠

لم يكن يهمه نوع الطعام الذى يأكله ، أو قيمة الرداء الـــذى يلبسه ٠٠ حسبه أن يجد ما يطرد عنه الاحساس بالجوع ، وما

يستر جسمه • وفيما عدا هذا فليس يهمه الا أن يجلس متراخيا على مقعده الهزاز فى البيت أو على ضفة الجدول تحت ظل شجرة وارفة ، والكتاب بين يديه

ورأت المسز مالبى أن تستفيد من زوجها الشاب ، فأعفت العامل المكسيكى من العمل ، وطلبت من جونيوس أن يحل محله فى رعاية المزرعة وفلاحتها واستثمارها ، كما يفعل معظم أصحاب المزارع الصغيرة فى الوادى

ولكن جونيوس كان قد اعتاد الكسل ، وأحب المزرعة والوادى كما هما •• فلم يكن يهمه أن يرى نباتات جديدة تظهر ، أو ان يعزق الارض ويقلب كل شىء رأسا على عقب • ولهذا فقد ذهلت زوجته حين وضعت فى يده منجلا وطلبت منه أن يعمل فى الحديقة ، فلما عادت اليه ظهرا ، رأته جالسا والمنجل بجواره والكتاب بين يديه ، مستغرقا فى قراءته

وبدأت فى أول الامر تثيره وتلومه على كسله وتقارن بينه وبين غيره من أصحاب المزارع فى الوادى ، ولكنها لم تلبث أن أدركت أنه لم يكن ينصت الى كلمة من أقوالها ؟ وكان يقول معتذرا انه لا يليق – تأدبا – أن ينصت الانسان الى سيدة حين تخرج عن طورها ، تماما كما لا يليق أن ينظر الانسان محملقا فى رجل مقعد

ويئست المسز مالبى منه •• وبدأت هى أيضا تهمل بيتها •• ونفسها وتصفيف شعرها • وفى خلال خمس سنوات ازدادت أحوالهما سوءا • أطل شبح الفقر عليهما ، وتمزقت ملابسهما ، واقتصر طعامها على القليل من الفاكهة البرية والخضر التى كانت المسز مالبى تزرعها فى جزء من الحديقة • ولكن جونيوس كان سعيدا بما يستعيره من الكتب فى المكتبة العامة ، وكانت سعادته كلما وقع فى يديه كتاب من نوع « مغامرات فى القارة »

وفى نهاية العام الرابع من الزواج شعرت المستر مالبى بأنها حامل • وما كادت تنتهى أشهر الحمل حتى وضعت طفلا ثم ماتت

بعد الوضع بثلاثة أيام

وأذاعت السيدة الجارة التي ساعدت في عملية الوضع أن الزوج جونيوس كان جالسا على ضفة الجدول مستغرقا في قراءة كتـاب وزوجته تحتضر

وبلغ الغضب باحدى الجارات اللاتي كن يتناوبن ارضاع الطفل أن ذهبت الى جونيوس وهو جالس تحت الشـجرة وأرغمته على الوقوف ثم ألقت بالطفل بين يديه وراحت توجه اليه ألذع الكلمات وأسوأ الصفات • ولما فرغت نظرت اليه فرأته مستديرا بظهره نحوها وقد حمل الطفل الوليد الصارخ بين ذراعيه وعلى وجهه امارات الانسان الذي لا يدري ماذا يصنع بهذا الذي يحمله

وتناقل سكان الوادي أقاصيص كثيرة عن جونيوس • وكانوا أحيانا يكرهونه كراهية الناس المجتهدين المكافحين للرجل الكسول وأحيانا أخرى كانوا يحسدونه على كسله وقناعته ورضاه بالقليل مع استمتاعه بهذا الترف النادر •• ترف الانسان الحر الذي يقضي كل أوقاته حسب رغبته ومزاجه • وفي أحيان أخرى كانوا يشفقون عليه ويرثون له ويرونه انسانا مسكينا • ولكن أحدا منهم لم يدرك يوما أن جونيوس كان سعيدا جدا في حياته

وتحدثوا عنه متندرين فقالوا انه ذهب ـ بناء على رأي الطبيب ـ لشراء عنزة يستخدم لبنها في اطعام الطفل الوليد الذي سماه روبي، ولكنه اشترى بدل العنزة جديا وهو لا يعرف الفرق بين الاثنين • ولما لم يجد في الجدي لبنا أعاده الى البائع قائلا :

ـ هل هذه العنزة طبيعية

ـ انها جدي وليست عنزة

ـ ولكنني لم أجد فيها لبنا لاطعام ابني الوليد !

وضحك البائع وأعطاه عنزة ذات ضروع • ولكن جونيوس ظل يوما كاملا وهو لا يدري كيف يستدر اللبن من ضروعها ، ولما أعادها للبائع مرة أخرى ، علمه كيف يحصل على اللبن منها

وكان بعض سكان الوادي يقسمون بأنهم كثيرا ما رأوه وهو يضع

فم الطفل فى احدى حلمات ضروع العنزة ويتركه يرضع حتى يرتوى ورغم أن هذا كله كذبا وافتراء ، الا أن سكان الوادى لم يكونوا يعرفون على وجه اليقين كيف كان هذا الوالد العجيب يربى ابنه ٠

وفى ذات يوم ذهب جونيوس الى مدينة مونتريرى واستأجر رجلا ألمانيا عجوزا ليساعده فى العمل بالمزرعة ٠ وأعطى العامل الجديد خمسة دولارات تحت الحساب ٠ ولكنه لم يعطه بعد ذلك شيئا لسبب بسيط ، وهو أن العامل الجديد لم يلبث بعد أسبوعين أن تعلم الكسل من مخدومه ، وأصبح الاثنان يجلسان تحت هذه الشجرة أو تلك ، أو على ضفة الجدول ويتناقشان فى الامور التى تغم عليهما ، مثل كيف تكتسب الزهرة ألوانها ، وهل هناك تناسق فى الطبيعة ، وأين تقع قارة الاطلانتس ، وكيف تحنط قبائل الانكاس جثث موتاهم ٠٠ !

وكانا فى الربيع يزرعون البطاطس متأخرين عن موعد الزراعة دائما ، ولم يكونا يحاولان العناية به بعد ذلك ٠٠ وكذلك كانا يزرعان فى الارض حبوب القمح والشعير والفول ثم يتركانها للطبيعة ترعاها ٠٠ وهكذا كانت الاعشاب البرية تزحف على كل شيء وتغطى كل شيء ، ولكن كان من المناظر المألوفة رؤية جونيوس أو عامله جاكوب ستانز وهما يدخلان فى دغل من الاعشاب ثم يخرجان ومعهما خيارتان أو ثلاث كبيرة باهتة اللون

وأقلع جونيوس عن ارتداء الاحذية ، لأنه كان يفضل المشى حافيا على الارض الحانية ، ولانه لم يكن لديه حذاء يرتديه

وفى العصارى كان يجلس الى عامله جاكوب ستانز ويتحدث معه الساعات الطوال ٠ وكان يقول له بين الحين والاخر :

ـ أتعرف كيف كان شعورى عندما ماتت زوجتى ٠ لقد شعرت أولا بالفزع ، ثم تحول الفزع الى حزن عميق ، وتحول هذا الى أسف والواقع أنى لم أكن أعرف زوجتى جيدا ، ربما لانى كنت قريبا منها جدا ، والانسان لا يستطيع أن يحسن رؤية الشيء القريب منه ٠ أو يبدو أن لبعض الناس ذهنا طويل الرؤيا ، وأن لبعضهم الاخر ذهنا

قصير الرؤيا ٠٠ الواضح أننى من ذوى الاذهان البعيدة الرؤيا ٠٠ فمثلا أنا أعرف عن البارثنون أكثر مما أعرف عن بيتى هذا ؟

وفجأة تتألق عينا جونيوس ويرن الحماس فى صوته وهو يقول لصاحبه :

ـ جاكوب ٠٠ هل رأيت البارثنون ؟

ـ نعم ٠٠ رأيت صورة سياحية له ٠٠ انه بناء رائع

ويضع جونيوس يده على ركبة صاحبه ويقول متحمسا :

ـ ان تماثيل الجياد فيه تدل على أنها سعيدة ٠٠ ولابد أن النحات الذى صنعها كان يشعر باحساس الجياد ، والا لما رسمها على هذا النحو !

وهكذا كان جونيوس ينتقل من موضوع الى موضوع ٠ وكان الرجلان كثيرا ما يقضيان اليوم كله جائعين لانهما عجزا عن اصطياد أرنب برى أو طائر أو كمية من السمك أو العثور على مخبأ بيض احدى الدجاجات أو البط البرى

وفى هذا الجو أخذ الطفل روبى واسمه الحقيقى روبرت - ينمو فى سمت جاد لا يعرف عبث الطفولة وحلاوتها ٠ وكان يتبع بساقيه الصغيرتين ، الرجلين أينما ذهبا ، وينصت الى مناقشاتهما ، ولم يكن جونيوس يعامله على أنه طفل صغير ، لانه لم يكن يعرف كيف يعامل الاطفال الصغار ٠ فكان روبى اذا أبدى ملاحظة ما ، أنصت الرجلان اليها باهتمام ، بل اعتبراها أحيانا بذرة موضوع جدير بالبحث ، وسرعان ما يتتبعان هذا الموضوع فى الموسوعة البريطانية المستعارة من المكتبة العامة

وهكذا كان الطفل يعيش مثلهما ، مهلهل الثياب ، حافى القدمين يتحدث كالرجال ، لانه لم يعرف كيف يتحدث الاطفال ٠ وكان الرجلان لا يختاران عادة موضوعا للحديث ، وانما يتحدثان فى أى شىء يخطر ببال أحدهما ثم يتركان المحادثة تتفرع وتتفرع حتى يدهشهما المحصول النهائى لمحادثة بدأت بعبارة صغيرة ، فمثلا كان

جونيوس حين يجلسون تحت شجرة سرو وارفة الظلال على ضفاف الجدول :

ــ أعتقد أن أشجار السرو من الاشجار الطيبة

ويرد عليه جاكوب قائلا :

ــ نعم ·· انها تنمو بجوار الماء · والاشياء الطيبة تحب الماء · أما الاشياء الرديئة فتحب الجفاف

ويقول جونيوس :

ــ ان شجرة السرو طيبة وكبيرة ، ولابد أن يكون الشيء الطيب كبيرا ليعيش مدة طويلة · أما الاشياء الصغيرة فكثيرا ما تدمرها الاشياء الشريرة · وقلما تجد الاشياء الكبيرة سامة أو غادرة ، ولهذا فان تفكير الانســـان يرتبط دائما بأن الشيء الكبير طيب والشيء الصغير خبيث ، أتدرك هذا يا روبى ؟

ويقول الطفل روبى :

ــ نعم ·· مثل الفيل

ــ ان الفيل شرير أحيانا ، ولكننا حين نفكر فيه ، نذكره دائما بالخير والطيبة

ويقول جاكوب :

ــ والماء ·· ما رأيك فى الماء

ــ الماء هو بذرة الحياة ·· والارض هى الام ·· والشمس هى الصانع الذى يساعد الحياة على النمو ··

وعلى هذا النحو تمضى ثرثرتهم ويستمر لغوهم فى الحديث حتى يعودوا الى البيت جائعين أحيانا ، ولكنهم سعداء

وكان سكان الوادى قد نفروا من جونيوس بعد وفاة زوجته ، وظل نفورهم منه يزداد حتى كادوا ينسون وجوده فى الوادى · وبينما كان معظم أصحاب المزارع ينجحون ويتطورون ويشترون السيارات ويذهبون الى دور السينما فى مونتريرى بمعدل مرتين فى الاسبوع ، كان جونيوس يزداد انحدارا واملاقا وجوعا ، بل كان لا يجد ثمن شفرة يحلق ذقنه أو ذقن صاحبه جاكوب · وهكذا

كان الاثنان والطفل يعيشون حياة بدائية فى قلب مجتمع متحضر

ولم يكن جونيوس يعرف شيئا عن مشاعر سكان الوادى نحوه ٠٠ ولم يحاول يوما أن يهتم بمشاعرهم ، وانما كان يعيش سعيدا غاية السعادة بحياته الرومانسية راضيا كل الرضا عن جلساته تحت الشجر الوارف الظلال ، وعلى ضفاف الجدول قانعا بما يسد به رمقه من ثمار الطبيعة ، سعيدا بما يقرؤه من كتب ، وبما يتحدث به مع صاحبه جاكوب وابنه روبى

ولكن سكان الوادى كانوا يعطفون على الصبى ٠ وكانت السيدات يتبادلن الحديث عن قسوة الحياة التى ينمو فيها الطفل ، ولكن واحدة منهن لم تحاول أن تتدخل لمصلحة الصبى ، لان آداب السلوك لا تسمع لاحد أن يتدخل فى شئون غيره !

وكانت المسز بانكس تقول لضيفاتها فى قاعة الاستقبال :

ـ انتظرن حتى يبلغ الصبى سن الالتحاق بالمدرسة ٠ اننا الان لا نستطيع أن نفعل شيئا ، ولكن بمجرد أن يبلغ الصبى السادسة من عمره ، فسوف نتدخل فى شئونه بحكم القانون

وكانت المسز اللين زوجة صاحب المتجر ، تغمض عينيها وتقول :

ـ يجب ألا ننسى أنه ابن صديقتنا الراحلة مانى كويكر ٠٠وكان يجب أن نرعاه اكراما لذكراها ٠٠ ولكن ٠٠ لقد اقترب من السادسة ، وعندما يلتحق بالمدرسة سوف نقدم له أشياء لم يرها فى حياته

وأومأت سيدة أخرى برأسها وقالت :

ـ ان أقل ما يجب أن نقدمه ، بعض الملابس التى تغطى جسمه الصغير .

ولاح كأن الوادى كله كان يتربص فى انتظار الوقت المناسب لالتحاق روبى بالمدرسة ، ولكن عندما افتتح الموسم الدراسى بعد بلوغ روبى السادسة ، دون أن يظهر الصبى بين التلاميذ الجدد ، كتب جون هوايتسيد ، سكرتير المدرسة خطابا شديد اللهجة الى جونيوس مالبى يذكره بواجباته نحو ابنه ، وقال جونيوس

لروبى بعد أن قرأ عليه الخطاب :

ـ اننى نسيت هذا الامر يا روبى • أعتقد أنه يجب أن تذهب الى المدرسة •

وقال روبى :

ـ اننى لا أريد أن أذهب

ـ نعم • وأنا لا أريدك أن تذهب أيضا • ولكن القانون يجب أن يطاع • والقانون يحمى نفسه بالعقوبات ، وعلينا أن نوازن بين الاستمتاع بالخروج عن القانون ، وبين احتمال عقوباته • وقد كان القرطاجينيون يعاقبون حتى على سوء الحظ • واذا خسر أحد القواد معركة بسبب سوء الحظ ، فانه يحاكم ويخيل لى أن هذا ما يحدث الان •• لاننا نعاقب الانسان الذى يكسر القانون بسبب ظروف خارجة عن ارادته •

ونسى جونيوس أمر المدرسة فى غمرة المناقشة التى تفرعت بعد ذلك ، ولكن خطابا آخر وصل اليه وجعله يقول لروبى :

ـ أعتقد أنه لا بد من ذهابك الى المدرسة يا روبى ، انهم سيعلمونك هناك أشياء كثيرة •• عظيمة •• ومفيدة

فقال روبى فى رجاء :

ـ ولماذا لا تعلمنى أنت يا أبى ؟

ـ أوه •• اننى لا أستطيع •• لانى نسيت الاشياء التى يعلمونها للصغار •

ـ اننى لا أريد أن أذهب •• لا أريد أن أتعلم تلك الاشياء

ـ نعم •• نعم •• ولكن الامر ليس بيدنا •• لا بد لك من الذهاب

وهكذا ذهب روبى الى المدرسة ذات صباح • وكان مرتديا بذلة عمالية قديمة ممزقة عند الركبتين ، ولا شىء غير هذا ، وكان شعره ينهدل على جبينه كأنه عرف مهر صغير

وتحلق التلاميذ حوله وشرعوا ينظرون اليه فى صمت • وكانوا جميعا قد سمعوا من أهليهم عن فقر والده وكسله الشـــــديد • وكانوا يترقبون هذه اللحظة ليتخذوا منـــــه اداة للعبث واللهو

والتعذيب ، وها هى ذى اللحظة قد حانت ، ها هو ذا روبى واقف بينهم • ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على أن يقول له :

ـ من أين اتيت بهذه الملابس الفاخرة

أو ••

ـ انظروا الى شعره !

أو ••

ـ لا شك أنه أنظف تلميذ فى المدرسة

لم يستطع أحد منهم أن يقول شيئا مما كانوا ينوون أن يقولوه •• وقد دهشوا من صمتهم وعجزهم عن تعذيبه

أما روبى فقد وقف يبادلهم النظرات بثبات عجيب ، ودون أدنى خوف منهم • وأخيرا قال لهم :

ـ ألا تلعبون شـــيئا • لقـــد قال أبى ان لديكم ألعابا كثيرة ممتعة

وهتف التلاميذ وقد انطلقت ألسنتهم :

ـ انه لا يعرف لعبة من ألعابنا •• هلم نعلمه عسكر وحرامية •• أو الجواسيس أو الاستغماية •• أو الافضل •• هلم نلعب معه الابيض والاسود

واخذ التلاميذ يتسابقون لتعليمه بعض ألعـــابهم ، ولم يلبث الصبى أن أصبح موضع اهتمامهم ورعايتهم ، وكان تأثيره عليهم مدهشا •• فقد تركه التلاميذ الكبار وشأنه •• أما الصغار أمثاله فكانوا يحاولون أن يقلدوه فى كل شىء ، حتى فى تمزيق البنطلونات عند الركبتين ليكونوا مثله

وكانوا حين يجلسون للطعام فى الظهيرة ، يجعلون ظهورهم الى جدار السور ويرهفون أسماعهم الى حديثه عن أبيه وعن الجلسات الممتعة على ضفاف الجدول وتحت الاشجار الكبيرة • وقد بلغ من انبهار التلاميذ بأحاديثه أن راحوا يحسدونه ويتمنون لو كان لهم والد مثل والده

وأخذت المس مورجان ، المدرسة ، تهتم بأمر روبى بعد أن أثار

الحقل الخلفى لبيتنا وأن ترسلوا أصواتا مثل صوت الثعلب ٠٠ وسوف أحضر لاقودكم لانقاذ الرئيس المسكين ٠٠

وكان روبى قد دبر هذه اللعبة الجديدة بالاشتراك مع والده والعامل العجوز جاكوب

وكانت المس مورجان قد قررت أن تذهب لمقابلة جونيوس ، والد روبى ، وشاءت الصدفة أن تقرر هذه الزيارة فى ذلك اليوم ـ السبت ـ الذى تحدد فيه موعد القيام بهذه اللعبة ٠

وسارت فى الطريق الى مزرعة مالبى التى كانت تقع على مسافة ميلين من مسكنها ، فى منطقة تسمى خورجاتو أماريللو ٠ وكان ثمة جدول يجرى بجوار الطريق ٠ وكان الجو باردا فى الخور ، لان الشمس لم تكن قد ارتفعت بعد ٠ وخيل الى المس مورجان ، وهى تسير ـ أنها سمعت وقع أقدام وراءها أو حولها ، وأصواتا مختلفة خافتة ٠ ولكنها لم تكن ترى شيئا كلما تلفتت حولها ، ورغم هذا كانت ترى الاعشاب الطويلة بين الحين والاخر تتحرك وتتكسر كأن هناك من يختبىء وراءها ٠٠

ورغم أن المس مورجان لم تكن قد رأت مزرعة جونيوس من قبل الا أنها عرفتها فورا حين وقعت أنظارها عليها ٠ لقد أدركت أنه لايمكن أن تكون هناك فى الوادى كله مزرعة مهملة كهذه ٠٠ كان سياجها قد تهاوى الى الارض ، والاعشاب والنباتات البرية تزحف عليها من كل ناحية ، وأعواد الكروم البرية تتسلق أشجار التوت والشليل والتفاح ، العصافير والارانب تنطلق هنا وهناك كأنها فى مكان مهجور ٠ وأخيرا رأت المس مورجان سقف بيت جونيوس ٠٠السقف المكسو بالنباتات المتسلقة ومختلف أنواع الاعشاب الجافة ، وكان البيت يبدو ساكنا موحشا كأن أحدا من الناس لا يقيم فيه منذ مائة عام

وقالت لنفسها : كم يبدو البيت مهجورا ٠٠ ولكن ٠٠ ما أجمل الهدوء السابغ على كل شىء

واجتازت بوابة مهدمة ، ودارت الى منعطف الحديقة الخلفيـــــة

فضولها بسلوكه وأحاديثه التى كانت تختلف أشد الاختلاف عما ألفته من أحاديث وسلوك الصغار أمثاله • وكان الصبى رائعا فى القراءة قادرا على استخدام التعبيرات الرجالية ، ولكنه لم يكن قادرا على الكتابة • وكذلك كان لا يحسن العمليات الحسابية البسيطة رغم اتقانه للارقام والعد • واستطاع روبى أن يتعلم الكتابة بمشقة بالغة ••

ولما رأت الصبى يردد عبارة تنم عن الحكمة والثقافة وسعةالاطلاع سألته عن مصدرها ، فقال انه تعلمها من أبيه • وكانت المس مورجان قد سمعت الشىء الكثير عن مساوىء هذا الادب ورغم هذا كانت ترى أن من حقه أن يعيش بالاسلوب الذى يرتضيه ، وليس لاحد ، أيا كان ، أن يتدخل فى أسلوب معيشته طالما أنه لا يؤذى أحدا ••

ولما عرفت بعض الحقائق عنه من ابنه ، اشتدت رغبتها فى مقابلته والتعرف عليه •

وظلت هذه الرغبة تراودها دون أن تتحقق •• ومرت الاعياد ، وابتدأ الربيع يبتسم للدنيا • وكان روبى قد أثبت مكانه بين زملائه حتى أصبح الكثيرون منهم يكرهون ارتداء الاحذية ، ويسيرون مثله حفاة •

وأكثر من هذا نشر روبى فى الوسط المدرسى « مودة » جديدة • وهى أنه ليس من الرجولة ارتداء الملابس الجديدة النظيفة ،السليمة بل ان ارتداء مثل هذه الملابس يعتبر اهانة لروبى •

وكان روبى قد استنفد جميع الالعاب المختلفـــــة المعروفة فى الاوساط المدرسية ، حتى لعبة « الجواسيس » • وأخيرا فكر روبى فى لعبة جديدة ، ولم يلبث أن أرسل أربعة عشر خطابا لاربعة عشر تلميذا من أصدقائه ، كتب فى كل خطاب ما يلى : « ان جماعة من الهنود سوف يحرقون رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية بعد أن يشدوه الى عمود •• وسيتم التنفيذ فى حديقة بيتنا فى تمام العاشرة من صباح الغد ـ السبت ـ وعليكم أن تتسللوا الى

ولما سمع نباحا يأتي من أماكن مختلفة حول البيت ، قال :

ـ هذه هى النجدة تتجمع • معذرة يا مس جوردون •• اننى آسف •• لم أقدم اليك نفسى •• اننى جونيوس مالبى • وهـــذا السيد ، فى الاوقات العادية ، هو جاكوب ستانز •• أما الان ، فالمفروض أنه رئيس الجمهورية ، وأنا أحد الهنود الحمر ، سأشعل النار تحته لاحرقه •• ثم تأتى النجدة العسكرية لانقاذه •

وقال جاكوب بصوت لا يخلو من القلق :

ـ أرجو ألا ينتهى الامر بحرق ساقى !

وضحكت المس مورجان قائلة :

ـ هل تسمحان لى برؤية عملية الانقاذ يا مستر مالبى !

ـ اننى لست مالبى الان •• وانما المفروض أن أكون ثلاثمائة هندى أحمر •

وعادت أصوات النباح •• وقال جونيوس :

ـ اذهبى الى السلالم يا مس جوردون حتى لا يحسبك جنـــود الانقاذ احدى الهنديات الحمر فينقضوا عليك •

ونظر الى أعواد النبات البرى بالقرب من الحديقة ثم قال وهو يشعل عود ثقاب فى كومة الحطب :

ـ لقد وصلت جماعة الانقاذ فى الوقت المحدد •

وما كادت ألسنة النار تندلع حتى ارتفعت صيحات التلاميذ فى الجو ، واذا هم ينقضون على النار فيخمدونها ، ثم يفكون قيـــود « الرئيس » واذا هو يقف محررا سعيدا لانقاذه من « الموت »• ثم وقف التلاميذ طابورا ورفعوا أيديهم بالتحية العسكرية ، بينمـــا راح جاكوب « الرئيس » يثبت على صدر كل واحد منهم قطعة صفيح محفورا عليها كلمة « **بطل** »

وانتهت اللعبة • وقال جونيوس :

ـ فى السبت القادم سوف تقيم المحاكمة للهنود الخونة وتنفذ فيهم الاحكام الصادرة عليهم •

وصاحت فرقة الانقاذ :

ثم توقفت فى مكانها وهى تأبى أن تصدق عينيها ٠

فقد رأت فى وسط الحديقة الخلفية عمودا قائما فى الارض وقد شد اليه رجل عجوز بحبل التف حوله بضع مرات ٠

وكان هناك رجل اخر أصغر منه سنا وحجما ، ولكن يماثله فى الملابس المهلهلة واللحية المتهدلة ٠ وكان يجمع عند قدمى الاسير

كومة من القش والحطب ٠ وارتعدت المس مورجان وتراجعت وهى تقول لنفسها :

ـ لا لا ٠٠ لا يمكن أن يكون ما أرى صحيحا ٠٠ ان هذا لا يحدث الان ٠ لاشك أننى أحلم ٠

ولشد ما دهشت حين سمعت الحوار التالى يدور بهدوء بين الرجلين :

قال الجلاد :

ـ ان الساعة تقترب من العاشرة ٠

ـ رد الاسير قائلا :

ـ نعم ٠٠ ولكن كن حذرا فى وضع كومة الحطب ولا تشعل النار الا حين تشعر باقترابهم منا ٠

وفهمت المس مورجان كل شيء ، وتنهدت بعمق ، وتقدمت الى الحديقة بخطوات مترددة ٠٠ ورآها جونيوس وأطلت الدهشة

من عينيه ٠ ولكنه انحنى لها مرحبا ٠ وكانت انحناءته جميلة رغم لحيته المشعثة وملابسه المهلهلة ٠

وقالت المس مورجان بأنفاس متقطعة :

ـ اننى مدرسة المدرسة ٠٠ كنت أقوم بجولة فى هذه المنطقة ورأيت البيت ٠ وقد حسبت برهة أن ما يجرى الان حقيقة وليس لعبا !

فابتسم جونيوس وقال :

ـ ولكن المسألة بالنسبة للاطفال جد أكثر مما تتصورين ٠ وقد ظننت حين سمعت وقع أقدامك أنك النجدة ٠ ان النجدة منتظرة فى الساعة العاشرة تماما ٠

ـ لماذا لا نحاكمهم الان نشنقهم ؟

وقال روبى :

ـ لا يارجال • فهناك أشياء يجب أن نعدها أولا • يجب أن نقيم المشانق

ثم استدار الى أبيه وأردف قائلا :

ـ أعتقد أننا يجب أن نشنقك أنت والمس جوردان

وكان ذلك الاصيل من أجمل الاصائل التى عاشتها المس جوردون فى حياتها • فرغم أنها وضعت فى مكان الشرف تحت شجرة السرو فقد أخذ الغلمان يعاملونها كواحد منهم ، وليس كمدرسة الفصل •

ودعاها روبى قائلا :

ـ من الافضل أن تخلعى حذاءك وتدلى قدميك فى الماء البارد

وراحت تنصت ـ وهى تعبث فى الماء بقدميها ـ الى أحاديث جونيوس عن مجتمعات أكلة اللحوم البشرية بين قبائل اليوتيان الهندية ، وتحدث عن المرتزقة فى جيش قرطاجنة • وتحدث عن كيفية صنع المكرونة وعن نشأة صناعتها ، وعن اكتشاف مناجم النحاس ، وكأنه كان هناك • ولما راح جاكوب يعارضه فى نظرية الخروج من الجنة ، احتدمت المناقشة ، وتفرق الاولاد الى بيوتهم •

وانصرفت المس جوردون وراءهم ، وسارت بمفردها فى غسق المساء تفكر فى حياة جونيوس وتوازن بين هذا اللون من الحياة البدائية فى حضن الطبيعة وبين حياة الرجل المتحضر الذى لا يكاد يجد وقتا لالتقاط أنفاسه •

***

وكان اليوم المخصص لزيارة مجلس ادارة المدرسة من الايام العصيبة فى حياة المدرسة والتلاميذ معا • كان من الايام التى يتعثر فيها التلاميذ ويخطئون أكثر جدا مما يفعلون فى الايام العادية

وقام مجلس الادارة بالزيارة فى ظهر يوم من أيام ابريل ، وتوافد الاعضاء بعد الفراغ من طعام الغداء ، الواحد بعد الاخر ، ترتسم على وجوههم سمات الجد الممزوج بشىء من الخجل ، وكان أول الوافدين

جون هوايتسيد ، سكرتير مجلس الادارة ، بشعره الابيض ووجهه الهادىء • وبعده جاء بات هامبرت الذى انتخب عضوا بالمجلس لانه أراد هذا • وكان شابا وحيدا يحاول جاهدا أن يجد لنفسه مكانا طيبا فى مجتمع الوادى الاخضر ، ثم وفد المستر أللين صاحب المتجر العام الذى نال العضوية بحكم مركزه كصاحب المتجر الوحيـــد فى الوادى ، ثم أقبل المستر ريموند بانكس بجسمه الضخم ووجهه المرح وذراعيه الكبيرتين، وأخيرا برت مورنو العضو الجديد بالمجلس والذى كانت تلك أول مرة يزور فيها المدرسة رسميا

ولما جلس الاعضاء بمهابة وأبهة ، أقبلت زوجاتهم وجلسن فى الناحية الخلفية من الفصل • وهكذا وجد التلاميذ أنفسهم محاصرين من الامام ومن الخلف ، وبهذا انقطعت كل وسائل الهرب ، لو أراد أحدهم أن يهرب من هذه المحنة

ولكن اللفافة الكبيرة التى كانت المسز مونرو تضعها على حجرها لفتت أنظارهم وأثارت فضولهم رغم اضطراب أعصابهم

وبدأت المس جوردون الدرس بابتسامة مغتصبة وقالت بعد أن رحبت بالزائرين :

ـ اننا لن نغير منهجنا المعتاد فى التدريس أيها السادة ، وأعتقد أنه يسركم أن تشاهدوا كيف يتلقى التلاميذ الدرس كالمعتاد كل يوم ••

وتمنت بعد قليل لو أنها لم تقل هذا • لان التلاميذ راحوا يخطئون ويتعثرون بطريقة لم يسبق لها مثيل • كان هجاؤهم رهيبا ، وقراءتهم مزعجة واستجابتهم للفهم فى الحضيض • وتفصد العرق من جبين المس جوردان ، وتخيلت خطاب الفصل آتيا اليها لا محالة وكانت الزوجات فى الخلف يبتسمن بعصبية ، ومر الوقت بطيئا •• ولما انتهى درس الحســـاب كأســــوأ ما يكون ، نهض جون هوايتسيد وقال :

ـ شكرا يا مس مورجان • اذا سمحت فسوف أوجه حديثا موجزا للتلاميذ ، ويمكنك بعد ذلك أن تصرفيهم • ان من حقهم أن نشكرهم

على احتمالهم هذه الزيارة

وتنهدت المس مورجان بارتياح ثم قالت :

ـ اذن فأنت تدرك يا مستر هوايتسيد أنهم لم يبذلوا كل ما فى مقدورهم عند الاجابة ! اننى سعيدة بادراكك لهذه الحقيقة

وابتسم جون هوايتسيد الذى شهد الكثير من هذه المواقف وقال :

ـ لو كنت أعرف أن هذه هى كل امكانيات التلاميذ لاغلقنا المدرسة .

ثم ألقى كلمته التى اعتاد أن يلقيها فى مثل هذه المناسبة سنوات طوالا ، وطلب من التلاميذ أن يحبوا مدرستهم ومدرستهم ، وأن يضاعفوا الجهد فى تحصيل العلم . ولما فرغ ، طلب من المدرسة أن تأمر بانصرافهم

وأخذ التلاميذ ينصرفون فرادى فى هدوء وارتياح .. ولما وصلوا الى الفناء ، انطلقوا فى ضجيج هائل وصخب شديد

وصافح جون هوايتسيد المس مورجان باسما وقال لها :

ـ لم يسبق أن استطاعت مدرسة أن تحكم الفصل كما تفعلين . ولست أدرى هل تعرفين الى أى مدى يحبك التلاميذ ويحترمونك ؟

فقالت فى اصرار :

ـ ولكنهم تلاميذ طيبون .. نعم .. طيبون جدا

فوافقها هوايتسيد قائلا :

ـ نعم .. نعم .. انهم لكذلك .. وبهذه المناسبة كيف حال ابن جونيوس مالبى فى المدرسة !

ـ انه صبى متوقد الذكاء .. وعجيب .. نعم .. ان له ذكاء حادا

ـ لقد كنا نتحدث عنه فى اجتماع مجلس الادارة يا مس مورجان .. ولا شك أنك توافقيننا على أن حياته المنزلية ليست كما ينبغى . وقد لاحظته بوجه خاص اليوم .. ان المسكين يكاد يكون عاريا من الثياب

وشعرت المس جورجان أن عليها أن تدافع عن جونيوس لسبب غامض ، فقالت :

ـ نعم .. ان بيتا يثير التساؤل والعجب . ولكنه ليس رديئا أو سيئا ..

ـ أرجوك أن تفهمى غرضى يا مس مورجان .. اننا لا نريد أن نتدخل فى شئون الغير . ولكننا رأينا فقط أن نقدم اليه بعض الاشياء البسيطة . ان والده رقيق الحال جدا كما تعلمين .

فقالت المس جورجان برفق :

ـ نعم .. نعم ..

ـ لقد اشترت المسز مونرو بعض الملابس له .. فاذا سمحت واستدعيته فسوف تقدمها له .

فبادرت المس جورجان تقول :

ـ أوه .. لا .. لا .. لا أعتقد أن ..

ـ لماذا لا .. اننا نحمل له بضعة قمصان وبذلتين وخوذتين

ـ ولكن هذا قد يحرجه .. انه صغير السن حقا ولكنه على جانب كبير من الاباء والكبرياء

ـ لا لا يا مس جورجان .. ليس ثمة حرج اطلاقا فى تقديم بعض الملابس النظيفة السليمة لطفل فقير . بل ان الحرج هو أن يبدو بملابسه المهلهلة بين التلاميذ . وعدا هذا فان اعتياده على الحفاء سيجعله كارها ارتداء أى حذاء فى المستقبل

فقالت المس جورجان يائسة :

ـ اننى أفضل ألا تفعلوا هذا .. أرجوكم

ـ انك يا مس جورجان تبالغين فى تقدير الموقف الى حد كبير .. لقد اشترت المسز مونرو هذه الملابس الجديدة للصبى ، فأرجوك أن تستدعيه لتقدمها اليه

وبعد لحظات كان روبى واقفا أمامهم ، بشعره المسدل على عينيه ، ووجهه المضطرم بانفعال اللعب فى فناء المدرسة ، وأخذ الجميع ينظرون اليه فى عطف واشفاق ، ويركزون نظراتهم على ملابسه المهلهلة مما جعله يتململ فى وقفته .

وقالت المس مورجان :

ـ ان المسز مونرو تريد أن تقدم اليك شيئا ياروبرت

وهنا تقدمت المسز مونرو ووضعت اللفـــــافة بين ذراعى روبى وهى تقول باسمة :

روبى من ولد لطيف

ووضع روبى اللفافة بعناية على الارض ثم وقف ويداه خلفه ·

وقال المستر أللين صاحب المتجر بصوت حازم :

ـ افتحها

نظر روبى اليه فى تمرد ·· ثم قال :

ـ نعم يا سيدى

وفتح اللفافة ·· وبدت القمصان والبذلتان والحذاءان · ونظر روبى الى هذا كله دون أن يفهم شيئا · ولما فهم الحقيقة ، اضطرم وجهه بشدة وتلفت حوله كالفأر فى المصيدة ، وفجأة اندفع الى الباب وانطلق هاربا لا يلوى على شىء

والتفتت المسز مونرو الى المدرسة وقالت فى حيرة :

ـ ماذا حدث ! لماذا هرب !

ـ اعتقد انه شعر بالحرج والارتباك ·

ـ ولكن لماذا ·· ؟ اننا لم نسىء اليه ·

وحاولت المس مورجان أن تشرح لها الموقف · وشعرت بغضب مفاجىء · ولكنها تمالكت نفسها ثم قالت :

ـ بل أسأتم اليه يا سيدتى . انه كما اعتقد لم يكن يعرف انه تغير وفى حاجة الى مساعدة الغير الا الان فقط

واردفت قائلة كأنما تحدث نفسها :

ـ ليس الفقر هو قلة المال ·· وانما هو فى شعور الانسان بأنه فى حاجة الى مساعده الغير له بالمال

وقال جون هوايتسيد :

ـ انها غلطتى .. وأنا آسف جدا

وقال برت مونرو :

ـ وماذا سنفعل الان لاصلاح هذا الخطأ ؟

ـ اننى لا أدرى .. لا أدرى حقا

واستدارت المسز مونرو الى زوجها وقالت :

ـ اعتقد يا برت لو أنك ذهبت الى المسز مالبى وشرحت له حسن نوايانا ، فسوف يدرك حقيقة الموقف • ويمكنك أن تكون رقيقا فى حديثك معه • وقل له ان الاطفال الصغار لا يجب أن يسيروا حفاة وفى ملابس مهلهلة • وقد يدرك المستر مالبى حقيقة الموقف ويطلب من ابنه ان يقبل الملابس • ما رأيك فى هذا يا مستر هوايتسيد •

فهز جون هوايتسيد رأسه وقال :

ـ اننى لا أميل الى هذا الرأى ، ولكن يمكننا أن نأخذ عليه الاصوات •

وقالت المسز مونرو فى الحاح :

ـ اعتقد أن صحة الطفل أهم من مشاعره

ووافقت أغلبية مجلس الادارة على اقتراح المسز مونرو

واغلقت المدرسة بمناسبة أعياد الفصح • وقررت المس مورجان أن تقضى اجازتها فى لوس انجليس • وفيما هى واقفة تنتظر فى مفترق الطرق السيارة الحافلة التى تنقلها الى سيلاس أولا ، اذا بها ترى رجلا وصبيا يخرجان من طريق الوادى الاخضر ويقتربان نحوها • وكانا يرتديان ملابس جديدة رخيصة ويسيران فى تعثر كأن أقدامهما تؤلمهما • ولما اقتربا منها ، تبينت أن الصبى هو روبى • وكان وجهه ينم عن الحزن والاستياء • ومن ثم هتفت قائلة له :

ـ روبرت ؟ ماذا حدث •• الى اين أنت ذاهب !

وتحدث الرجل قائلا :

ـ اننا ذاهبان الى سان فرانسسكو يا مس مورجان

ونظرت بسرعة لترى أن الرجل هو جونيوس مالبى بعد أن أزال لحيته • ولم تكن تتوقع أن يبدو أمامها اصغر كثيرا مما كانت تظن •• كان لا يتجاوز الخامسة والاربعين بعد أن كانت تحسبه بلحيته الهائلة فوق الستين • وكانت نظـراته تنم عن الدهشة والحيرة والارتباك

ـ هل انتما ذاهبان لقضاء عطلة الاعياد ؟ اننى أحب المدن فى

هذه الاعياد ؟ ولا أمل الفرجة على واجهات المتاجر

وأجاب جونيوس ببطء :

ـ أعتقد أننا سنقيم فى سان فرانسسكو بصفة دائما ٠ انى كاتب حسابات مدرب ٠ اننى كنت كاتب حسابات منذ عشرين عاما ٠٠ وأعتقد أنى سأحصـــــــــل على عمل فى احدى الشركات أو المؤسسات بسهولة

ـ ولكن لماذا تفعل هذا ؟ لماذا تترك الوادى الاخضر ؟

فقال ببساطة :

ـ لم أكن أعرف اننى أسىء الى والدى هنا . ولم يخطر ببالى ان حياتنا فى هذا الوادى ، وعلى ذلك النحو ، ستسىء اليـــــه والى مستقبله ٠ وفضلا عن هذا ما كان ينبغى له أن ينشأ على الفقر ٠ أليس كذلك ؟ لم اكن أعرف ماذا كان سكان الوادى يقولون عنا ٠

ـ ولكن مزرعتك جيدة .. فلماذا لا تبقى فيها

ـ لاننى لم أعرف كيف أستثمرها كما ينبغى ٠ اننى لا أعرف شيئا عن الزراعة والفلاحة ٠ ولسوف يحاول جاكو أن يديرها ٠٠ ولكنه كسلان جدا ، ولهذا سأبيعها فى الوقت المناسب لكى أقدم لروبى اشياء لم يرها فى حياته

وأحست المس مورجان أنها على حافة البكاء ٠ ولكنها تمالكت مشاعرها وقالت :

ـ وهل من المفروض ان يصدق الانسان كل السخافات التى يقولها الناس عنه أو عن غيره !

فنظر اليها مدهوشا ثم قال :

ـ لا طبعا ٠٠ ولكن طفلا مثل روبى لا يجب أن يعيش وينمو كحيوان صغير ، انه ليس حيوانا يا مس مورجان

وأردف قائلا حين بدت السيارة الحافلة من بعيد :

ـ وروبى فى حاجة أشد الى أم حانية ٠٠ ولكن ٠٠ !!

ونظر جونيوس اليها فى صمت ورجاء ٠٠

وابتسمت المس مورجان .. ومدت يدها وامسكت بيد الصبى ولما أقبلت السيارة ٠٠ ركب فيها الثلاثة معا !!

الأخـتـان

عندما مات العجوز جيرمو لوبيز ، كانت ابنتاه قد بلغتا سن الرشد ، وكان هو قد ترك لها مزرعة صغيرة معظمها من الاراضى الجبلية فى الوادى الاخضر ، ولم يترك لهما مالا قط ·· وكانت الاسرة تعيش فى بيت صغير له فناء يطل على الطريق العام ، وفى الفناء بئر عذبة المياه

وأخذت الاختان تعملان فى المزرعة الجرداء ، بعد وفاة أبيهما ، ولكن المزرعة لم تعطهما شيئا ، واستطاعتا فى النهاية أن يزرعا الحديقة الخلفية بالخضر ، ولكن المحصول لم يكن يكفيهما لان يعيشا فى مستوى معقول

ولما طالت بهما أيام الفاقة ، ورأتا شبح الجوع يطل عليهما كل يوم ، وكانت كل منهما ممتلئة الجسم ، لا تطيق الجوع ، فقد قالت الاخت الكبرى روزا لاختها التى تصغرها بعامين ، ماريا :

ـ ألسنا أحسن من يصنع فطائر التورتيللا فى الوادى !

وقالت ماريا بحماس :

ـ نعم . وقد تعلمنا فن صناعتها من أمنا

ـ اذن فقد نجونا ·· لسوف نصنع التورتيللا باللحم المفروم ، والانشيلاداز بصدور الدجاج ، وفطائر النامالا بالكريمة · وسوف نقدم هذه الاصناف المكسيكية الشهية للوافدين على الوادى الاخضر أو الخارجين منه

ـ وهل سيشترى سكان الوادى هنا الفطائر منا ؟

ـ اسمعى يا عزيزتى ماريا ·· ان فى مدينة مونتريرى محلات كثيرة لبيع هذه الفطائر والحلوى ·· وأصحابها يكسبون الكثير ويشترون الملابس الحريرية ويذهبون الى دور السينما مرتين فى الاسبوع · وأنا أؤكد لك أن فطائرنا افضل مما يصنعون بكثير ·· ألم تكن امنا تقول هذا ؟

وطفرت الدموع الى عينى ماريا وهى تقول :

ـ ليس فى الدنيا من يصنع هذه الفطائر كما كانت أمنا تصنعها بيديها الطاهرتين

فقالت روزا :

ـ حسنا ‥ ما دامت فطائرنا لن يكون لها مثيل ، فسوف يقبل عليها الناس

وتبع هذا اسبوع من العمل المتواصل لاعداد الغرفات الثلاث الامامية من البيت مطعما صغيرا أنيقا ‥ وأعيد طلاء البيت ،وزرعت الازهار والورود فى جانبى المدخل ، وصفت المقاعد والموائد ذات المفارش النظيفة فى الغرفات الثلاث ٠ ووضعت على سور الفناء الخارجى لافتة تقول بالحروف الكبيرة « فطائر التورتيللا والانشيلاداس وحلوى التامالا ‥ وأصناف مكسيكية أخرى ‥ روزا وماريا لوبيز »

ولكن الطاعمين لم يتزاحموا على المطعم الجديد ، وانما كانوا يأتون فرادى ، بين الحين والاخر ‥ وكانت الاختان تجلسان الى الموائد وتنتظران هبوط الثروة . وفجأة أقبل زبون ، وثبتا اليه وراحت كل منهما تسابق الاخرى فى خدمته ، وفى ارسال الضحكات العذبة لكل ما يقوله الزبون حتى لو كان سخفا !

وكانتا تزهوان بأحسابهما ، بجمال فطائرهما ، ولا تدخران وسعا فى اظهار جمالهما ايضا ‥ الصدر النافر ‥ والاذرع البيضاء واللون والخصر النحيل فوق الردف الثقيل ‥ والابتسامة الدائمة التى تكشف عن اسنان وضاءة ‥ وتنير وجها فيه براءة الطفولة وجاذبية الانوثة

ولكن الزبائن ، رغم هذا ، لم يتوافدوا بكثرة ‥ وبدأت الاحوال تسوء تدريجا ٠ وفى ذات يوم قالت روزا لاختها ماريا :

ـ شدى جوادنا العجوز ليندو الى المركبة واذهبى لشراء علف له ٠ ولكن لا تكثرى من الكمية الان ‥ وحاولى أن تأتى معك بقطعتين من الحلوى المسكرة ‥ قطعتين كبيرتين

وذهبت ماريا ‥ وعادت فى الاصيل الى أختها تحمل فى المركبة كمية من علف الجياد ، وفى جيبها الواسع أربع قطع من الحلوى

المسكرة . ولكنها فوجئت بالهدوء المريب يخيم على البيت .. لقد اعتادت ان تستقبلها أختها روزا بالصياح والضحك والرغبة لمعرفة كل تفاصيل الرحلة ذهابا وايابا أما فى هذه المرة فقد رأت روزا جالسة الى منضدة وقد اسندت رأسها الى يدها وبدت كأنهـــا مستغرقة فى تفكير عميق

تقدمت ماريا نحوها فى ارتباك وقالت :

ــ لقد احضرت لك الحلوى المسكرة .. وها هى ذى

وتناولت روزا قطعتى الحلوى وراحت تلوكهما دون أن تبتسم أو تخرج عن وجومها . وجلست ماريا بجوارها وراحت تبتسم وتنتظر فى صبر أن تفضى اليها اختها بمتاعبها

وأخيرا قالت روزا بكل بساطة :

ــ اليوم .. سمحت لاحد الزبائن أن يقبلنى ..

وندت عن ماريا شهقة عجب واهتمام .. واســـتطردت روزا تقول :

ــ لا تسيئى فهمى يا ماريا .. اننى لم اسلم له شفتى مقابل المال .. وانما لاغريه بطلب المزيد من فطائرنا .. لقد سألنى بماذا أكافئه لو أكل ثلاث فطائر ، فقلت .. أقبله .. واذا أكل أربعا .. قلت أتركه يعانقنى وهو يقبلنى .. ولم .. لم يحدث اكثر من هذا

واخفت ماريا وجهها بين ذراعيها خجلا .. ولكن روزا عادت تقول :

ــ لابد ان نشجع الناس على الحضور يا ماريا .. حقا ان القبلة والعناق فى مذهبنا الكاثوليكى اثم كبير لابد أن نطهر منـــه بالاعتراف أمام اقيونتنا العذراء .. ولكن .. ماذا يمكن أن نفعل لكى نأكل ونلبس ونعيش كما يعيش الناس ! ما رأيك !

ومسحت ماريا أنفها وقالت :

ــ لا شك أن أمنا ستكون سعيدة لو أننا التمسنا الغفران من أمنا العذراء ومن القديسة روزا

واحتضنت روزا أختها ماريا وقالت :

ــ هذا ما فعلته .. فمجرد أن خرج ، ركعت أمام أيقونة أمنـــا

العذراء وأيقونة القديسة روزا وصليت فى طلب المغفرة

وتخلصت ماريا من ذراعى أختها ، وأسرعت الى غرفتها الخاصة ، وركعت أمام أيقونتها العذراء والقديسة روزا ، وكانت كل أيقـونة موضوعة فى تجويف فى الجدار وتحتها شمعة مضاءة • وبعد عشر دقائق ، عادت الى أختها وقالت لها :

ـ وأنا أيضا يا روزا سوف أشـــجع الزبائن على طلب المزيد من الفطائر

وكان ذلك اليوم نقطة تحول فى حياة الاختين • انهما لم يربحـا الشيء الكثير من المطعم ، ولكنهما كانتا تبيعان ما يكفى لاســـتمرار العمل فيه والحصول على كفايتهما من الطعام والرداء والحـــلوى المسكرة والعلف والشعير لجوادهما العجوز •

وكانت كل أخت تركع ـ قبل النوم ـ أمام أيقونتها وتطلب منها الصفح والغفران على تشجيعها للزبائن بوسائل لا تتناسب مع حياة العذارى !

ـ أخذت الحياة تمضى بهما فى يسر ورخاء ودون أية منافسة أو غيرة بينهما •• لانهما كانتا متساويتين فى الجمـــال رغم أن ماريا كانت أكثر بدانة ، وروزا أطول قليلا

وتجاوبت جـدران البيت أو المطعم برنين الضـــحكات وترجيع النغمات التى كانت الاختان ترددانها وهما تصـــنعان الفطائر فى بكور الصباح ، واذا تصادف وقال أحد الزبائن عبـــارة فكاهية ، اندفعت الفتاتان فى ضحك عريض متواصل يجعل الزبون ســـعيدا لاكتشافه بأنه انسان خفيف الظل

على أنه ينبغى القول أن الاختين كانتا حريصتين على كرامتهما ، ومن ثم لم تحاول احداهما أن تأخذ نقودا من أحد الزبائن أكثر من الثمن المحدد للفطائر التى تنـــاولها • فاذا أكل أربع فطائر أو أكثر ، كافأته احداهما بعدد من القبلات مع شيء من العناق الحار !

وقد حدث ذات مساء أن أحد الزبائن لم يستطع أن يأكل أكثر من فطيرتين ، ومن ثم حاول أن يقدم لروزا ثمن أربع فطائر ليظفـر بالمكافأة ! وكان بعض الزبائن موجـــودين بالمطعم ورأوا ما حدث • وخيم الصمت الثقيل على المكان • وأخفت ماريا وجهها بين يديهـا •

وشحب وجه روزا أولا •• ثم اربد بالغضب الشـــديد ، ولهثت أنفاسها من فرط الانفعال ، وارتفعت يداها الى جانبى خصرها ولكنه حين تحدثت ، كان صوتها هادئا مضغوطا بقوة الارادة :

ـ ان هذه اهانة بالغة أيها السيد•• ألا تعرف أن الجنرال فاليجيو أحد أجدادنا وان دماءه تجرى فى عروقنا ؟ فاذا الجنرال فاليجيو اذا سمع بهذا • أتراه كان يقبل محو هذا العار الا باراقة الدم • كيف أيها السيد توجه مثل هذه الاهانة الى أبرع صانعتى فطير التورتيللا فى كاليفورنيا كلها

فقال المذنب بصوت ضعيف :

ـ أنا لم أقصد اهانتكما ، أقسم بالله يا روزا .. لم أقصد هذا

وانحسر الغضب عنها عندئذ • ولكنها أشارت بيدها الى البـاب وقالت بلهجة آمرة :

ـ أخرج •• أنا أعـرف أنك لم تقصد اهانتنـا ، ولـكن هـذا لا يعفيك من الذنب • وعليك ألا تعود مرة أخرى الا بعد شـــهر •• هذا هو العقاب

ثم استدارت ، بعد خروج الرجل ، الى بقيـــة الزبائن وأردفت قائلة :

ـ والان •• هل يريد أحدكم مزيدا من الفريجولا • ؟ ان طبق الفريجولا عندنا ليس له مثيل فى العالم

وعلى هذا النحو كانت الاختان تعيشان ســعيدتين هانئتـــين ، تأخذان الحياة ببساطة ، وترضــــيان بالقليل ، وتسعدان بقطعة الحلوى ، والثوب الجديد ، والذهاب مرة كل شهر الى احــدى دور السينما

وكانت روزا تقول لاختها ماريا :

ـ اننا نعيش فى سعادة بالغة يا ماريا •• ولعل الام العـــذراء لا تحرمنا من هذه السعادة

ولكن الاحساس بالتشاؤم لم يكن دائما •• فقد اشـترت روزا فنغرافا ومجموعة من الاســطوانات •• وهــكذا انطلقت الاغانى والموسيقى الراقصة فى أنحاء المطعم الصغير ••

على أن سكان الوادى الاخضر كان لهم رأى آخر فى الموضـــوع

كله . لقد أخذت الهمسات تتناقل بينهم على أن الاختين من النساء السيئات السيرة ومن ثم كانت سيدات الوادى يتحدثن اليهما ببرود كلما التقت احداهما بواحدة منهما . وكان من المستحيل أن تعرف سيدات الوادى بما يجرى فى المطعم من قبلات وعناق .. فمن المؤكد أن الازواج لم يخبروا زوجاتهن بما يجرى فى المطعم . ومع هذا فقد وصلت أنباء هذا كله الى الزوجات

وفى ذات يوم صباحا ، أعدت ماريا مركبتها للرحلة الى مونتريرى ، ثم ركبت فى مقعد القيادة وصاحت بالجواد العجوز لندو :

ـ هلم يا لندو ..

ولكن لندو ارتعد واستدار برأسه نحوها كأنما يرجوها أن تعفيه من هذه الرحلة التى لم تعد شيخوخته تتحملها . وعادت ماريا تقول :

ـ ألم تسمع .. يجب أن نمضى . هناك أشياء يجب أن نشتريها من مونتريرى

وعاد لندو يهز رأسه ويثنى ركبته فى استرخاء . وتقول ماريا فى ضيق شديد :

ـ اسمع يا لندو .. يجب أن نمضى .. اننى مصرة على هذا

ومد لندو رأسه الى الارض كأنما يتشممها ككلب المطاردة وبدأ الخطوة الاولى لقطع مسافة التسعة أميال الى مونتريرى . وكان لندو يعرف هذا جيدا .. يعرف أنه لا بد أن يسير تسعة أميال ذهابا ، ومثلها ايابا ..

وكانت التلال فى بكور الصباح تتألق بالندى . وأخذت ماريا تتنفس بعمق وترفع صوتها بالغناء . وحتى لندو شعر بلمسة من الشباب فى تلك اللحظات ، فأرسل فى الجو نخيرا عاليا . وأخذ عصفور برى ينتقل من غصن الى غصن مزقزقا . وعلى مسافة يسيرة الى الامام رأت ماريا رجلا يسير متعثرا . وقبل أن تصل اليه عرفته من مشيته .. كان يسير كالقرد .. وكان شكله أقرب الى القرد منه الى الانسان .. انه المستر هونيكر .. أقبح رجل فى الوادى الاخضر ، وأكثر الرجال خجلا

وقد بلغ من خجل هونيكر من شكله أن أطلق لحيته حتى تخفى الجانب الاكبر من وجهه • ولكن اللحية زادته قبحـــا لانها كانت تنبت فى أماكن متفرقة من وجهه • وكانت زوجته قد تزوجتـــــه لانها بلغت السابعة والثلاثين ، ولان هونيكر كان الرجل الوحيـد فى عائلتها المحتاج الى رعاية • وقد ظهر فيما بعد أنه كانت لهـــا نزعات خاصة نحو الغيرة • ولما لم تجد شيئا فى هونيكر يمكن أن تغار عليه ، فقد راحت تبتكر أشياء من خيالها الواسع • فـكانت تقص على الزوجات من جاراتها قصصا عن علاقات هونيكر السرية مع النساء ، وعن فحولته التى لا تكتفى بزوجة واحـــدة ، وكانت تكرر سرد هذه القصص حتى أصبحت تصدقها • أما جاراتها فكن يضحكن بعد انصرافها ، لان كل ســــاكن فى الـــوادى الاخضر يعرف تماما مدى خجل هونيكر وحيائه وخوفه من المجتمعات

وتوقف لندو العتيق بجوار هونيكر ، وشدت ماريا العنــــان بقوة كأنما تكبح جماح جواد جامح وهى تقول :

ـ اثبت يا لندو .. واهدأ

هذا بينما كان لندو يتوقف كالصخرة عند أدنى ضـــــغط على العنان • وقالت ماريا لهونيكر :

ـ طاب صباحك يا مستر هونيكر

وتراجع هونيكر فى خجل الى جانب الطريق وقال :

ـ صباحا يا مس ماريا

ـ اننى ذاهبة الى مونتريرى . هل تحب أن تركب معى

ورفع هونيكر وجهه الى السماء كأنه يبحث عن النسور فيها :

ـ اننى ذاهب فقط الى محطة السيارة العامة

ـ وبعد ذلك . ان المسافة قصيرة

وحك هونيكر لحيته •• وأفسحت ماريا مكانا بجـــوارها •• وصعد هو الى المكان الخالى • وقالت ماريا :

ـ هلم يا لندو .. امض .. امض قبل أن أغضب

وتحرك لندو مرة أخرى • وســـاد الصمت بين ماريا وهونيكر حتى قطعته بقولها :

ـ هل أنت ذاهب فى رحلة طويلة ؟

وحملق هونيكر فى جانب التلال ٠٠ ولم يقل شيئا ٠

وقالت ماريا :

ـ أنا لم أركب قطارا فى حيـــــاتى ٠ ولكن أختى روزا ركبت القطارات ٠ وقد ذهبت ذات مرة الى ســـــان فرانسسكو ٠ وقد سمعت رجالا أغنياء يقولون أن السفر والترحل متعة كبيرة

وقال هونيكر :

ـ اننى ذاهب فقط الى ساليناس

ـ آه ٠٠ لقد ذهبت اليها كثيرا ٠ ان لى ولروزا صـــديقات فى ساليناس ٠ وكانت أمنا من هذه المدينة ٠ وكان والدنا يذهب اليها كثيرا

وتململ هونيكر فى جلسته وقال :

ـ ان سيارتى الفورد العتيقة معطلة ٠ ولولا هذا لركبتها ٠

ـ اذن فأنت تمتلك سيارة فورد

ـ انها مجرد سيارة فورد عتيقة

ـ اننى وروزا نتمنى أن نشترى سيارة يوما ما لنسافر بها الى كل مكان . . لقد سمعنا من الاغنياء أن السفر متعة

واستمرت المحادثة على هذا النحو ٠٠ ولندو سائر فى طريقـه لا يكاد يشعر بما يجرى خلفه

وكان برت مونرو وزوجته ينطلقـــان فى ســـيارتهما الفورد المستعملة ولما مرا بالمركبة ، مد برت مونرو عنقه وقال ضاحكا :

ـ أرأيت هذا !؟

ثم أردف قائلا :

ـ أرأيت ذلك الرجل فاتن النساء مع ماريا لوبيز !

وابتسمت المسز مونرو ٠ وعاد مونرو يقول :

ـ ما رأيك لو دبرنا مقلبا وأخبرنا زوجته بأننا رأينا زوجهـــا فاتن النساء مع ماريا لوبيز !

فقالت زوجته باصرار :

ـ لا تفعل شيئا من هذا

ـ ولكننا سنضحك كثيرا ٠ وأنت تعرفين كيف تتحدث زوجته عنه وعن فتنته للنساء ٠

ـ لا لا يا برت ·

وكانت ماريا تقول لهونيكر فى معرض الحديث :

ـ لماذا لا تأتى الى مطعمنا لنأكل التورتيللا · ان فطائر التورتيللا التى نصنعها ليس لها مثيل فى العالم · وأنا أذهب الى مونتريرى لاشترى الدقيق من هناك · انه ارخص ثمنا فيها

وغاص هونيكر فى مجلسه · وتمنى أن يصل الى محطة السيارة الحافلة ·

ولما عادت ماريا الى أختها روزا ، كانت الشمس قد أوشكت على المغيب · وهبطت من المركبة وهى تهتف للندو :

ـ ها قد وصلنا ·· اذهب الى المربط املأ معدتك بالشعير أيها العجوز العزيز ثم دخلت الى البيت وهى تحمل كمية كبيرة من الحلوى المسكرة وبعض الملابس والاقمشة الحريرية

ولكنها فوجئت بالهدوء يرين على البيت والمطعم ، تماما كما حدث فى مرة سابقة · ورأت روزا جالسة الى مائدة وقد ارتسم الوجوم الشديد على وجهها ، ولم تلتفت الى ماريا حين دخلت · وتوقفت هذه قائلة فى دهشة :

ـ لقد جئت يا روزا ·

واستدارت روزا ببطء وقالت :

ـ نعم

ومدت يديها بالملابس والاقمشة وقالت :

ـ لقد جئت لك بهدية

ولم تهتم روزا ·· وقالت ماريا :

ـ روزا ·· ألا ترين ؟ ألم يعجبك هذا ؟

ـ انك يا ماريا فتاة طيبة

ـ ماذا بك يا روزا ؟ هل أنت مريضة · يجب أن تخبرى أختك ماريا بكل شىء

ولما لم تجب روزا ، قالت ماريا :

ـ هل حضر أحد وأساء اليك ؟

ـ نعم ·· جاء المأدور

ودهشت ماريا ، وقالت فى انفعال :

ـ هل جاء المأمور حقا ؟ اذن فقد نجحنا ·· ان حضور المأمور للاكل عندنا سوف يشجع الجميع على الحضور ·· لسوف نزداد ثراء · أخبريني كم فطيرة أكلها !

وهزت روزا رأسها فى حزن وقالت وهى تضع ذراعيها حول أختها :

ـ يا أختى الصغيرة الحبيبة · اننا لن نستطيع أن نبيع الفطائر بعد اليوم لا بد أن نغلق المطعم ونعيش كما كنا ·· بلا ملابس جديدة ولا حلوى مسكرة ولا ذهاب الى السينما

فهتفت ماريا قائلة :

ـ روزا ·· هل جننت ؟ لماذا يحدث هذا كله ؟

ـ نعم ·· لقد جاء المأمور بناء على شكوى قدمت اليه ·· قال ان المسز هونيكر جاءته وشكت اليه اننا ندير هذا المطعم لاغراض غير شريفة ، وان الناس رأوا زوجها راكبا معك فى الطريق الى مونتريرى ··

وهتفت ماريا مرة أخرى قائلة فى استنكار :

ـ المسز هونيكر ؟ كيف هذا ؟

ـ نعم ·· ان زوجته تقول اننا نريد أن نخطفه منها ·· تصورى ·· وقد قال المأمور انه يتصرف بناء على الشكوى المقدمة اليه · وما دمنا لا نملك ترخيصا بادارة المطعم ، فلا بد أن نغلق أبوابه ·

ـ وماذا قلت له ·

ـ احتججت عليه بشدة وأكدت له ان كل ما يقال عنا كذب فى كذب · ولكنه قال ان القانون يجب أن يطاع · ولهذا أصدر الى أمرا مكتوبا باغلاق المطعم ·

وأخفت ماريا وجهها بين يديها وقالت :

ـ وماذا سنفعل الان ؟

وصمتت روزا برهة قبل أن تقول :

ـ ليس أمامنا غير الرحيل الى سان فرانسسكو بعد أن نبيع البيت والمزرعة

ـ وماذا سنفعل هناك ؟

ـ ليس أمامنا الا أحد أمرين : اما أن نصطاد زوجين قبـــل أن يفرغ المال من أيدينا واما ٠٠٠

ـ نظرت ماريا اليها فى ترقب وقالت :

ـ واما ماذا يا روزا ؟

ـ واما نزيد كل ليلة من حرارة الصلاة وطلب الصفح والغفران من أمنا العذراء ٠٠

ولا يدرى حتى ماذا فعلت الاقدار بالاختين ٠ هل استطاعتا أن تصيدا زوجين ، أم أن كلا منهما ظلت فى كل ليلة ، وقبل أن تنام ، تصلى وتدعو السيدة العذراء فى طلب الغفران !

الفصل السادس

الغائب

هبطت موللى جوردان من القطار فى مدينة ساليناس ، وبقيت تنتظر فى السيارة الحافلة نحو نصف ساعة ، وكانت السيارة واقفة بالمحطة ، ليس بها غير السائق والتذكرى

وقالت للسائق :

ـ اننى لم أذهب قط الى جنة السماء •• أو الوادى الاخضر ، فهل يقع بعيدا عن الطريق العام !

ورد السائق قائلا :

ـ نحو ثلاثة أميال

ـ هل يمكن أن أجد سيارة تنقلنى اليه ؟

ـ لا •• الا اذا كان هناك من يستقبلك على محطة الطريق

وكانت السيارة قد بدأت تسير •• وقالت المس جوردان :

ـ كيف اذن أصل الى هذا الوادى الاخضر !

ـ لا أدرى •• يمكنك أن تقطعى المسافة سيرا •• معظم سكانه يسيرون هذه المسافة اذا لم يكن هناك من يستقبلهم بسيارة أو مركبة

ولما وصلت الى المحطة التى يتفرع منها الطريق الجانبى الى الوادى ، هبطت حاملة حقيبة سفرها وسارت بوجه جامد السمات نحو التلال • وسمعت وراءها زفيف سيارة فورد عنيفة ثم صريخ وقوفها بجانبها ، ثم صوتا يقول :

ـ أذاهبة انت الى الوادى يا سيدتى ؟

ـ آه •• نعم •• نعم ••

ـ حسنا •• اركبى معى •• لا تخافى •• اننى بات هامبرت ، ولى مزرعة بالوادى

وتأملت موللى الرجل برهة • ثم اطمأنت اليه وقالت تعرفه بنفسها :

ـ اننى المدرسة الجديدة .. أعنى سأكون المدرسة الجـديدة بعد أن يوافق على تعيينى المستر هوايتسيد . أتعـرف أين يقبم المستر هوايتسيد

ـ نعم .. طبعا . لسوف أمر بمزرعته فى الطريق .. انـه سكرتير مجلس الادارة للمدرسة . وأنا عضو بالمجلس كما تعلمين .. وكنا نتساءل عنك وعن كيف ستكونين

وشعر بالارتباك لما قال ، واضطرم وجهه فجأة ثم قال معتذرا :

ـ طبعا .. طبعا .. كنا واثقين بأنك ستكونين خير مدرسـة لاولادنا . لقد اتعبتنا المدرسة السابقة . وتخلت عنا فجـأة ..

ويقال انها .. انها تزوجت رجلا كان يمتلك مزرعة هنا يدعى جونيوس ..

وقالت موللى جوردان حين توقف عن الحديث برهة :

ـ ان التعليمات التى معى تقول ان على أن أقابل المسـتر هوايتسيد . فهل هو رجل طيب ؟ ما رأيك ؟ هل سأستريح فى مقابلته ؟

ـ أوه .. نعم .. نعم .. طبعا . انه رجل عجوز لطيف ولد فى الوادى الاخضر ، وسوف يبقى فيه الى آخر العمر . تصورى أنه سكرتير المدرسة ومجلس الادارة منذ عشرين عاما !

ولما تركها تهبط أمام بيت جون هوايتسيد الكبير ، شـعرت بالرهبة ، وقالت لنفسها :

ـ لقد حانت اللحظة الحاسمة . ولكن ليس هناك ما أخشاه . انه لن يستطيع أن يفعل بى شيئا

وكانت موللى فتاة فى العشرين من عمرها ، وكانت تشعر أن مقابلتها للمستر جون هوايتسيد ستكون نقطة تحول فى حياتها وفى مستقبلها

وكان البيت فى مظهره الخارجى ، وستائره المسدلة على النوافذ والحديقة الفاخرة المليئة بالزهور على مختلف أنواعها والوانها ، ينم عن مدى العناية التى يتمتع بها من سكانه

وصعدت موللى الدرجات الواسعة الى الباب الخارجى الكبير ، وجمعت شجاعتها وصلصلت الجرس . وفتح الباب ، ووقفت فبه

سيدة بدينة ضاحكة الوجه والعينين قالت لها :

ـ أرجو ألا تكونى من البائعات المتجولات • فأنا لا أشـــترى اشياء معينة ، ولكن البائعة تقنعنى بشرائها ، ثم أغضب وأثور على نفسى

وضحكت موللى •• وشعرت بالراحة والبهجة ، وادركت فى تلك اللحظة الى اى حد كانت خائفة •• وهتفت قائلة :

ـ لا لا •• اننى لا أبيع شيئا • انما أنا المدرسة الجديدة • ومعى خطاب للمستر هوايتسيد •• هل يمكن أن أقابله !

ـ نعم •• نعم •• ولكننا فى الظهر • وقد فرغ لتوه من طعام الغداء •• هل تغديت :

ـ أوه •• طبعا •• أعنى •• لا ••

وارسلت المسز هوايتسيد ضحكة قصيرة وافسحت لموللى طريقا للدخول وقالت :

ـ حسنا •• حسنا جدا • تفضلى بالدخول

وتقدمتها الى غرفة طعام فاخرة من خشب الموجنـــة ، وكانت المائدة مفروشة بالاطباق والاوانى • وقالت المسز هوايتسيد :

ـ يبدو آن جون فرغ من طعامه • اجلسى يا ابنتى •• سوف أحضر لك بعض الشواء •

ـ أوه •• شكرا •• لا داعى لهذا • سوف أتحدث مع المستر هوايتسيد ثم انصرف

ـ اجلسى يا ابنتى •• انك ستكونين فى حاجة الى التغـــذية لمواجهة جون

ـ أهو •• أهو شديد الى هذا الحد مع المدرسات الجديدات ؟

وفكرت المسز هوايتسيد برهة ثم قالت :

ـ الواقع أنه عنيف جدا مع الذين لا يتناولون طعام الغداء فى بيته • واذا تناولوه ، فانه يكون معتدلا •• أو خفيف الوطأة على الاقل

وضحكت موللى ابتهاجا وقالت :

ـ يبدو أنك أم لعدد كبير من الاطفال !

ـ فلوت المسز هوايتسيد أنفها بطريقة مضحكة وقالت :

ـ ليس لى غير ولد واحد ·· وقد ربيته حتى كبر ·· وهو الان يربى الابقار ·· مسكين !

ولما فرغت مولى من طعامها ، فتحت المسز هوايتسيد بابا جانبيا وقالت :

ـ جون ·· هناك من يريد مقابلتك

ثم وقعت مولى الى غرفة مكتب مليئة بخزانات كتب ومجلدات· وكانت تستعمل أيضا غرفة للاستقبال ·

وعلى أحد المقاعد الجلدية الفاخرة ، رأت كهلا أبيض الشعر ، لطيف السمات جالسا الى مكتب من الموجنة ، ينظر اليها بتساؤل، فقالت :

ـ اننى مولى جوردان

ـ آه ·· المس جوردان ·· كنت فى أنتظار وصولك ·· تفضلى بالجلوس

واختارت مقعدا من النوع المتأرجح وقالت :

ـ اننى أحب هذا النوع من المقاعد ·· كان فى بيتنا واحد منها وأنا طفلة

ثم استدركت فى خجل وقالت :

ـ جئت لمقابلتك بشأن العمل · وانى أحمل لك خطابا ··

وابتسم المستر هوايتسيد وقال :

ـ أرجو أن تتراخى فى جلستك يا مس جوردان ·· اننى فى الواقع أشعر بالحرج فى مثل هذه المناسبات رغم تكرارها كثيرا خلال عشرين عاما ··

وهدأت أعصاب مولى وقالت :

ـ اننى سعيدة بهذا اللقاء يا مستر هوايتسيد ·· فهذه أول مرة أقابل فيها أحدا بشأن العمل ·· اننى لم أعمل فى حياتى من قبل

ـ حسنا ·· حسنا يا مس جوردان ·· اعتقد أن الهدف من هذه المقابلة هو معرفة كل ما يمكن أن أعرفه عنك وعن طبيعتك وشخصيتك · ولهذا أعتقد أن كلمات قليلة منك سوف تكفى ··

وأومأت مولى برأسها وقالت :

ـ نعم يا مستر هوايتسيد ·· سوف أحدثك عن نفسى ·

وعادت موللى بذاكرتها الى الوراء ·· الى أيام طفولتها عندما نشأت فى بيت حجرى عار من الطلاء ، له فناء خلفى ، وشجرة عالية كان أخواها توم وجو يتسلقانها ويتصايحان « أنا النسر » بل « أنا الببغاء » !

ويفتح الباب الخلفى المؤدى الى الفناء ، وتظهر الام ، مجهدة ، مرهقة مشعثة الشعر تلتصق خصلات منه على جانبى وجهها · وكانت عيناها على شىء من الاحمرار دائما ، ويداها تؤلمانها ·· وكان صوتها ينم عن القلق والحزن وهى تهتف لولديها :

« توم ·· جون ·· لسوف تقعان اذا لم تحذرا ·· ألا تحبان أمكما ·· ! »

ويصمت الطفلان تماما ·· وتكون موللى جالسة فى الفناء ممسكة بعصا عليها بعض القماش متخيلة أنها سيدة أنيقة · وتقول لها أمها :

« هلم يا مولل وابقى بجانب امك ·· اننى أشعر بالتعب الشديد» وتقف مولل وترشق العصا فى أرض الفناء وتهمس لها :

« كونى مؤدبة أيتها الفتاة والا عدت وضربتك على مؤخرتك العارية »

ثم تمضى الى امها وتدخل معها البيت

وتجلس أمها على كرسى فى المطبخ وتقول لها :

« اقتربى منى يا مولل ·· اجلسى معى قليلا · ألا تحبين أمك ؟ انك ابنتى الصغيرة الحبيبة »

وتتململ مولل فى مقعدها ·· وتعود الام لتقول لها :

وتشعر الطفلة الصغيرة بتعاسة بالغة · كانت تعرف أن أمها سوف تبكى بعد لحظة ، وتجد نفسها مضطرة الى التخفيف عنها والمسح على شعرها المشعث · وكانت تعرف أن عليها وعلى اخويها أن يحبوا أمهم اكبر الحب ، لانها تفعل كل شىء من أجلهم ، كل شىء ·· وكانوا من ثم يشعرون بالخجل من انفسهم لانهم يكرهون البقاء بجوارها · ولكن ماذا فى وسعهم أن يفعلوا · لقد

كانوا يكتمون أنفاسهم عندما تنـــادى عليهم دون أن تراهم ، ثم يتسللون بعيدا ويتحدثون فى همس

***

وقالت موللى للمستر هوايتسيد :

- ابدأ الحديث عن نفسى يا سيدى فأقول اننا كنا فقراء جدا .. بل استطيع أن أقول اننا لم نكن نجد ما يكفى لطعامنا كل يوم .. وكان لى اخوان اكبر منى قليلا . وكان والدنا بائعا متجولا فى البلاد .. ومع هذا كان على أمنا أن تعمل فى غسل الملابس لكى توفر لنا بعض الطعام

وعادت موللى الى ذكرياتها :

وفى كل ستة أشهر تقريبا كانت الحياة فى البيت الفقير الصغير تتغير فجأة . كانت الام تتسلل فى الصباح من غرفة نومها بهدوء وقد صفف شعرها والتمع ، وتألقت عيناها ، وارتسمت السعادة على وجهها الذى كان يبدو عندئذ على شىء من الجمال .. وكانت تهمس لاولادها قائلة :

« سكوتا يا أولاد .. لقد عاد أبوكم أمس »

وتتسلل موللى وأخواها من البيت ، وفى الفناء يتبادلون الحديث فى اهتمام وهمس . وينتقل الخبر بسرعة بين الجيران . وسرعان ما يمتلىء الفناء بأولاد الجيران الذين يهمسون لموللى وأخويها :

« يقولون ان والدكم جاء أمس مساء ! أهذا حقا ؟ أين كان كل هذه المدة ؟ »

وعندما تأتى الظهيرة ، كان الفناء يزدحم بنحو عشرين طفلا .. كلهم يتهامسون وينتظرون . ثم يفتح الباب الخلفى بعنف . ويقفز الوالد هاتفا ضاحكا :

« كيف حالكم يا أولاد ! »

وتلقى موللى بنفسها مع اخويها بين ذراعى الوالد .. ويروح هو يطوح بهم ، واحدا بعد الاخر ، فى الهواء مداعبا ضاحكا ، بينما تقف الام مبهجة كلها السعادة والابتهاج :

« حذار يا أولاد أن تفسدوا ملابس أبيكم »

ويشترك أولاد الجيران فى المرح ، ويتشابكون فى معـــارك وهمية ، ويتصارعون ضاحكين ، ويجرون هنا وهنـــاك وهم

يشعرون أنهم يستمتعون بيوم أفضل من أى يوم عطلة

ويصيح الوالد المرح :

« انتظروا ·· انتظروا حتى تروا ماجئت لكم به »

ويسرع الى داخل البيت ، ثم يعود حاملا حقيبة سفر كبيرة ويفتحها ثم يروح يوزع الهدايا البسيطة على أولاد الجيران جميعا ·· وكانت الهدايا على بساطتها من الانواع التى لم يكن مثل هؤلاء الاطفال قد رأوها من قبل · لعب ميكانيكية ، وحشرات تتحرك وتزحف ، وعرائس ترقص وتتواثب ، ومجاريف ودلاء للحفر فى الرمل ، وألوان من « البلى » الزجاجى الذى تبدو فى داخله صور الكلاب والقطط ·· وكانت الهدايا تكفى الجميع وتزيد ·· وهكذا كان الجميع يعتبرون يوم عودة المستر جوردان من أيام الاعياد

وتهدأ الضجة فى النهاية · ويجلس جورج جوردان على سلم الفناء الخلفى ، ويتحلق الاولاد حوله ليسمعوا مغامراته · لقد كان فى هذه المرة داخل المكسيك ورأى ثورتها الكبرى · ولكنه تركها وذهب الى هونولولو وشاهد بركانها الثائر دائما · وظل يتحدث وينتقل فى الحديث من مدينة الى أخرى · ومن مغامرة الى مغامرة · ويظل الاولاد يسعدون بأحاديثه وطرائفه يوما بعد يوم كلما عادوا من المدرسة ، وكان جورج جوردان فى الواقع من الذين شاهدوا عددا كبيرا من المدن اثناء جولاته التى تستغرق كل جولة منها ستة أشهر كاملة

***

وعادت المس موللى جوردان تقول للمستر هوايتسيد :

ـ أما عن حياتى المنزلية ، فقد كنت أعيش بلا أب تقريبا ·· كان يأتى مرة كل ستة أشهر ليعيش بيننا بضعة أيام ·· ثم يغيب بحثا عن الرزق

وعقدت موللى يديها فى حجرها وغامت عينيها بالدموع ، وعادت تعيش مع ذكرياتها ، ولكنها فى هذه المرة أفاقت بسرعة ونظرت الى المستر هوايتسيد فى حزن ثم قالت :

ـ وعندما بلغت الثانية عشرة من عمرى مات أبى فى حادثة

وعادت للحياة مع ذكرياتها :

كانت زيارات أبيها تستغرق فى كل مرة اسـبوعين • وكان ابوها يغادر البيت بعد ظهر يوم ما ، ويمضى الى المدينة المجـاورة ولا يعود الا فى ساعة متأخرة من الليل • وكانت الام تأمر أبناءها بالذهاب الى غرفة نومهم مبكرا ، ولكنهم كانوا يسمعون أباهم وهو يعود مترنحا متعثرا فى كل شيء ، وكان صوته يأتى اليهم غريبـا ثقيلا حزينا • وكان الاطفال وهم يكتمون أنفاسـهم فى الفراش ، يعرفون معنى هذا كله • كانوا يعلمون أن أباهم سيرحل فى الصباح، وسترحل قلوبهم معه •• ولا يعود الا بعد ستة أشهر أخرى

كانوا يستغرقون فى مناقشات لا نهـاية لها عما كان يفعل أبوهم فى الحياة .. كانوا يتصورونه فارسا مغوارا ، وبطـلا أسطوريا ، ورجلا شجاعا يجمع بين الفضيلة والبسالة والجمال ، وكان الولدان يقولان :

ـ عندما نكبر ، سنذهب معـه لنشاركه مغـامراته لنصرة الضعيف والمحتاج ..

وكانت موللى تقول فى اصرار :

ـ وسوف أذهب أنا أيضا ؟

ـ ولكنك فتاة •• لا يمكنك احتمال المشقة !

ـ ولكنه سيدعنى أذهب معه ، وأنتما تعرفان هذا • ومن المؤكد أنه لن يتركنى بعيدا عنه

وعندما يغيب ، كانت أمهم تعود الى حالتها من الاهمال والحزن والتذمر الدائم والبكاء الى حد احمرار العينين والالحاح فى المطالبة بحبهم لها ، وكأنما هذا الحب يمكن وضعه فى لفافة وتقديمه اليها

وذهب أبوهم ذات مرة ولم يعد . ولم تكن عادته أن يرسل اليهم مالا أو خطابات . ولكنه فى هذه المرة اختفى تماما ، وبعد عامين من الانتظار قالت الام انه مات فى حادثة ، وارتعدت قلوب الابناء لهذه الفكرة ، ولكنهم أبوا أن يصدقوها ، لانه لا يمكن أن يموت والد لطيف شجاع كوالدهم ، لا شك أنه غائب فى مغامرة طويلة بمكان ما من العالم ، ولا شك أن هناك سببا معقولا يبرر غيابه ، ولا شك أنه سـيعود ذات صباح ومعـه هدايا أجمـل وقصص

أعذب ، ولكن أمهم كانت تصر على أنه لابد قد مات فى حادثة . وبدأت تقرأ الاعلانات التى تغرى القراء بشراء الكتب التى تعلم ربة البيت كيف تكسب المال وهى فى بيتها ، وشرع الابناء يساعدون أمهم فى صنع الازهار الصناعية من الورق الملون وبيعها . وحاول الولدان أن يبيعا الصحف . وعض الجوع أمعاء الاسرة الصغيرة أكثر من ذى قبل . ولما عجز الولدان عن الاحتمال هربا والتحقا بالبحرية ، ولم تعد موللى تراهما الا كما كانت ترى أباها قبل اختفائه ، وكانا قد تحولا الى شخصين آخرين .. شخصين زائطين مستهترين بالقيم والمبادىء حتى لم يعد يهمها كثيرا أن تراهما

وأفاقت من ذكرياتها لتقول للمستر جون هوايتسيد :

ـ والتحقت بالمدرسة الثانوية ، ثم بكلية المعلمات بسان جوزيه. وكنت أقوم بالخدمة فى بيت المسز ألان موريت نظير طعامى ونومى، وقبل أن أتخرج ، ماتت أمى ، ولهذا أعتقد أننى يتيمة تماما

وتمتم هوايتسيد برفق :

ـ اننى آسف

واحمر وجه موللى خجلا وقالت :

ـ أنا لم أذكر هذا استدرارا للشفقة يا مستر هوايتسيد ، لقد أردت أن تعرف عنى شيئا ، وكل انسان لابد أن يغدو يتيما يوما ما

ـ نعم . وأنا أيضا يتيم ولا شك !

وعادت موللى الى ذكرياتها :

وكانت تقوم بالخدمة نظير طعامها ونومها ، كانت تعمل خادمة طول الوقت بلا أجر ، وكانت تحصل على المال اللازم لملابسها ونثرياتها بالعمل فى متجر عام اثناء الاجازة الصيفية ، وكانت المسز موريت تقول مبررة تصرفاتها مع اللاتى يقمن على خدمتها بلا أجر :

ـ اننى أدرب كل فتاة تأتى لخدمتى على أشياء ما كانت لتعرفها لو لم تقم بالخدمة عندى . اننى أعلمها ادارة البيت وفن الطهو والبراعة فى تنظيف الاوانى والاثاثات والارضيات الباركيه وغير

ذلك ، بحيث يمكنها ، حين تشتغل فى بيت آخر ، أن تحصل على خمسين دولارا فى الشهر

وكانت موللى فى المساء ، بعد أن تفرغ من غسيل الاوانى ، تجلس فى فراشها وتستذكر دروسها ، حتى اذا أطفئت الانوار ، قعدت تفكر فى أبيها . وكانت تعرف ان هذا التفكير نوع من الشذوذ ومضيعة للوقت ، ولكنها كانت دائما تتخيله وقد وقف بباب غرفتها ، مرتديا بذلة فاخرة وقبعة حريرية غالية ، وفى يده باقة من الورد الثمين ، ويقول : « لم أستطع أن آتى من قبل يا موللى ، ارتدى ملابسك بسرعة ، لاننا سنذهب أولا لشراء فستان سهرة فاخر لك ، ثم نمضى الى نيويورك .. هلم اسرعى ولا تقفى هكذا كالبلهاء »

وكانت هذه خيالات سخيفة .. هكذا فكرت موللى ، لان اباها مات ولا شك . ولكن .. لا .. أين الدليل على موته ؟ ما دام ليس هناك دليل قاطع ، فهو لم يمت .. بل يعيش فى مكان ما بالعالم الواسع .. مكان جميل .. ولسوف يعود حتما ويسأل عن أبنائه

وقد أعربت موللى عن مشاعرها فى هذا الشأن لاحدى زميلاتها فى الكلية ، فقالت :

ـ أننى لا أصدق أن أبى مات .. ولكننى لا أملك أيضا الدليل على أنه حى ، ولو حدث وتأكدت أنه مات فانى لا أعرف ماذا أفعل ! ان الامر سيكون رهيبا على ، بل اننى لا أريد أن أفكر ، مجرد تفكير ، فى أن أبى مات

ولما ماتت أمها ، شعرت بقليل من الحزن وبكثير من الخجل ، لقد كانت أمها تطالب بالكثير من الحب دون أن تعرف كيف تكتسب هذا الحب ، وكانت نزواتها وسوء تصرفاتها تبعد عنها أبناءها وتنفرهم منها

وقالت موللى للمستر هوايتسيد بعد أن تنبهت من ذكرياتها ، وحصلت على الدبلوم ، وأرسلت للعمل هنا

وقال المستر هوايتسيد :

ـ هذه ألطف مقابلة

ــ هل أفهم من هذا أننى سأعين مدرسة هنا ؟

ــ طبعا .. طبعا .. بل انت الآن معينة فعلا .. ولكن .. أين ستقيمين يامس جوردان .. لابد أن تبحثى عن مسكن مفروش للاقامة !

وفجأة وجدت نفسها تقول بلا تفكير :

ــ اننى أريد الاقامة هنا

وارتسمت الدهشة فى عينى جون هوايتسيد وهو يقول :

ــ ولكننا لا نؤجر هنا غرفا مفروشة

ــ أوه .. اننى آسفة . ولكننى أردت فقط أن أقول اننى أتمنى لو استطعت الاقامة هنا

وهنا نادى على زوجته ويللا وقال لها :

ــ هذه الشابة تريد أن تقيم معنا .. هنا . انها المدرسة الجديدة

وقطبت المسز هوايتسيد جبينها وقالت :

ــ أظن أن هذا غير ممكن .. اننا لا نؤجر غرفا مفروشة . كما أن الآنسة حسناء جدا وأخشى أن يضايقها ابننا الاحمق بيل . ولعله يهمل من أجلها أبقاره . وعلى كل حال يمكنك أن تقيمى فى غرفة النوم الثالثة بالطابق الاعلى . انها لا تتعرض كثيرا لحرارة الشمس

وشعرت موللى فجأة أنها تبدأ حياة جديدة سعيدة حتى خيل اليها أنها أصبحت ملكة فجأة ، فمنذ اليوم الاول أحبها تلاميذ المدرسة لانها كانت تفهمهم ، وأكثر من هذا ، عرفت كيف تجعلهم يفهمونها ، واحتاج الامر الى بعض الوقت لكى تدرك أنها أصبحت شخصية هامة فى مجتمع الوادى الاخضر . فاذا تناقش اثنان فى حادث تاريخى أو موضوع أدبى أو مسألة حسابية ، ولم تنته المناقشة الى اتفاق فى وجهات النظر ، قال أحدهما للآخر : « هلم نعرض الموضوع على المدرسة ، فاذا لم تعرف ، فسوف تبحث الامر فى مراجعها »

وكانت موللى تشعر بالزهو حين تدلى برأيها الحاسم فى مثل هذه الامور . وفى الحفلات كانت تدعى للاشتراك فى اعدادها والتخطيط لها

وكانت فى بيت هوايتسيد تعمل لمساعدة المسز هوايتسيد فى المطبخ . وبعد ستة أشهر قالت المسز هوايتسيد لزوجها :

ــ لو كان بيل على شىء من حسن الادراك لما فكر فى الزواج الا من هذه الفتـــاة العـــاقلة .. واذا كانت هى على شىء من حسن الادراك »

وأمسكت المسز هوايتسيد عن اتمام العبارة الاخيرة ، لانهـــا أرادت أن تقول لو أن موللى على شىء من حسن الادراك لما قبلت الزواج من بيل ، لان بيل لم يكن فى رأى أمه الا طفلا أحمق كبيرا .

وكانت موللى فى المساء تكتب بعض الرسائل لصديقاتها اللاتى تعرفت بهن فى كلية المعلمات ، وكانت تضمن هذه الخطابات قصصا عن جيرانها ، وتعرب عن مدى سعادتها ، وقالت انها تشارك فى كل حفلة ، وتثبت جدارتها فى كل مناسبة ، وفى العطلات الاسبوعية تتجول فى التلال الخضراء وتعود بأعواد النرجس والزهور البرية لتنبتها فى حديقة البيت

أما بيل هوايتسيد الشاب الذى كان له جسم ابن الخامسة والعشرين وتفكير ابن الثامنة عشرة ، فانه ألقى نظرة سريعة على موللى ثم انطلق يجرى الى أبقاره والى أحلامه عن ماى مونرو .. تلك الغادة البضة الملفوفة الجسم ، ابنة برت مونرو ..

ولكنه لم يلبث أن استجمع شجاعته وراح يقترب تدريجيـــا من موللى بحكم اقامتها مع أسرته . وهكذا راحا يتبادلان الاحاديث بين الحين والاخر فى الشرفة الكبيرة بالبيت .. وفى ذات ليلة كانت السعادة تغمر قلب موللى وتدفعها الى الحديث عن أبيها وعن آمالها فى أن يكون على قيد الحياة . وكان الاثنان جالسين فى الشرفة ينتظران بزوغ القمر . وحدثته عن زيارات أبيها .. ثم عن اختفائه المفاجىء .. ثم أردفت قائلة باكية :

ــ أترى يا بيل ؟ ان أبى اللطيف يعيش فى مكان ما .. انه أحب الناس الى .. وأنا أعيش على أمل لقائه يوما .. لابد أنه سيأتى يوما .. أليس كذلك ؟

وهز بيل كتفيه وقال :

ــ ربما .. ولكننى فهمت من أقوالك أنه حمار لا يقدر المسئولية

•• ومعذرة يا موللى •• واذا كان حيا ، فلماذا لم يرسل أى خطاب على الاقل ؟

وشعرت موللى بالبرودة تسرى فى جسمها •• ونظرت الى بيل فى دهشة كأنما تراه لاول مرة ، حقا كانت تعرف أنه ليس ذكيا كأبيه ولا خفيف الظل كأمه •• ولكنها كانت تنظر اليه ، رغم هذا ، باعتباره زوج المستقبل ، اذا فشلت فى اقتناص الشاب الوحيد الهادىء بات هامبرت

ولكن عبارة بيل عن أبيها جعلتها تؤمن أنه آخر رجل يصلح للزواج منها ، واذا كان حقا ما يقال عن افتتانه بماى مونرو ، فليذهب معها الى الجحيم

ونهضت متوترة الاعصاب وقالت ببرود :

ـ نعم •• انك على صواب •• سوف أدخل الان لانى تذكرت أن على اعداد دروس الغد ••

ومنذ ذلك الحين لم تحاول أن تجلس مع بيل على انفراد ••ولكنها فى الوقت نفسه أخذت تضاعف من اهتمامها ببات هامبرت كلما التقت به فى احدى الحفلات أو فى احدى الزيارات

وكان هناك على قمة تل مرتفع من التلال المحيطة بالوادى الاخضر ، كوخ خشبى قديم يشرف على الوادى وعلى جميع الطرق المفضية الى الوادى • وكان يقال ان قاطع الطريق فاسكويز قد شيد هذا الكوخ واختبأ فيه عاما بينما كان رجال الشرطة يبحثون عنه فى كل مكان ، وكان الكوخ من معالم الوادى •• كل من فيه يذهب الى قمة التل لرؤية الكوخ وكأنه مكان تاريخى جدير بالمشاهدة ، ولهذا كان كل واحد فى الوادى يسأل موللى :

ـ هل رأيت كوخ فاسكويز قاطع الطريق :

فتهز رأسها وتجيب بالنفى ثم تردف قائلة :

ـ ولكننى سأذهب اليه يوما •• يوم سبت •• وانى أعرف الطريق اليه

وفى ذات صباح ، ارتدت ملابس الرحلات ، ولما رآها بيل ، قال لها :

ـ هل أذهب معك ؟

ـ لا ‥ ان لديك عملا فى المزرعة

ـ ان العمل لا يهم ‥

ـ ولكننى أفضل أن أذهب بمفردى · اننى لا أريد أن أجرح شعورك يابيل

ثم قالت لنفسها كأنما تبرر موقفها الخشن منه :

« اننى أريد أن أقوم بمغامرة ‥ واذا جاء بيل معى ، فلن تكون مغامرة ، وانما مجرد رحلة عادية ‥ »

واستغرقت الرحلة ساعة ونصف ساعة حتى وصلت الى الكوخ الخشبى وكان الطريق محفوفا بأشجار الزيزفون ، ومفروشـــا بأوراقها اللامعة ، والجو حارا مفعما بأريج السرخس والزهور البرية ولما وصلت موللى الى الكوخ أخيرا ، وجدته قائما فى ساحة مبسوطة على قمة التل ، لم يكن غير غرفة واسعة بلا نوافذ ومدخل بلا باب ، وكان المكان هادئا فيما عدا همهمة الجنادب وطنين النحل ، كما كان جانب التل كله يسبح فى ضوء الشمس

وتقدمت موللى على أطراف أصابعها نحو المدخل وهى تقـــول لنفسها :

ـ اننى الان أستمتع بمغامرة ‥ اننى فى قلب مغامرة فعلا ‥ فى الكوخ الذى كان فاسكويز يختبىء فيه

وحملقت داخل الكوخ ورأت سحلية تمرق فى شق من جداره ، وكان نسيج العنكبوت يتدلى من السقف بكثافة · ولم يكن بالكوخ شىء آخر ‥ مجرد أرضية من الطين المتعفن الرطيب ، وجدران متآكلة ، ورائحة الجو الرطيب المحروم من الشمس سنوات وسنوات وقالت تحدث نفسها :

ـ هنا كان فاسكويز يرقد ليلا ويرهف الســـمع الى الرجال الزاحفين ، ثم يمضى الى مدخل الكوخ كالشـــبح ثم يختفى فى الظلام

ونظرت الى الوادى ‥ الى حدائق الفاكهة ‥ والى حقول القمح الذهبية ، والى المراعى ‥ والى التلال القائمة السابحة فى عطر الازهار · وبين المزارع كانت الطرق تتلوى وتنعطف وتصعد وتهبط وفوق الوادى كله كانت تنتشر غلالة من حرارة الصيف ، وهمست موللى لنفسها :

ـ كأنني أعيش فى خيال جميل ·· اننى أعيش فى قصة ·· فى مغامرة حقيقية

وهبت نسمات من الوادى كأنها آهة ندت عن نائم ·· ثم تلاشت ·

وعادت تقول لنفسها :

ـ وفى النهار كان ذلك المغامر فاسكويز ينظر الى الوادى كما أفعل الآن ، ولعله كان يقف حيث أقف هنا ، وينظر الى الطرقات الملتوية · ولعله كان يرتدى صديرية مموهة بخيوط الذهب ، وسراويل مشدودة على ساقيه ومتسعة فى أسفل كأفواه النافورات، ومهمازيه مكسوان بالشرائط الحريرية حتى لا يصدر عنهما صوت

·· ثم يرى رجال الشرطة وهم يمضون بعد أن يئسوا من العثور عليه · ومن حسن حظه أن هؤلاء الرجال كانوا لا يرفعون أنظارهم الى أعلى ، والا لشاهدوه فى وقفته · ولعله كان يضحك ·· وأحيانا يشعر بالخوف · ومن المؤكد أنه كان يرفع عقيرته ·· لعله كان يغنى أحيانا أغنيات رقيقة حزينة لانه كان يعلم أنه لن يعيش طويلا

وجلست موللى على حافة صخرة وأراحت ذقنها على كفيها ، وخيل اليها أن فاسكويز الشاب واقف بجوارها ، وأن له وجه أبيها الضاحك ، وعيناه المتألقتان وهو يصيح « هيا يا أولاد ·· »

ونهضت موللى واقفة وقالت لنفسها :

ـ لقد حان وقت العودة ··

والتقى بيها بيل وهى عائدة ، فقال لها :

ـ ظننا أنك أصبت فى كاحلك أو ساقك ، ولهذا كنت ذاهبا للبحث عنك · هل ذهبت الى الكوخ !

ـ نعم

ـ انه مجرد كوخ قديم عادى ·· لدينا من مثله أكثر من عشرة أكواخ فى أنحاء الوادى ·· كانت لبعض الافاقين الذين لا يمكثون فى مكان واحد أكثر من بضعة أسابيع · ولكن العجيب أن عددا كبيرا من الناس يذهبون اليه ، مع أنه لا يجد دليلا أكيدا أن فاسكويز أقام فيه

فقالت موللى فى استنكار :

ـ لا ·· بل أعتقد أنه كان مختبئا فيه حقا

ـ على أى أساس بنيت هذا الاعتقاد ؟

ـ لا أدرى

وقال بيل جادا :

ـ كل انسان يعتقد أن فاسكويزكان بطلا ، بينما هو فى الحقيقة لم يكن أكثر من لص وقاطع طريق · لقد بدأ حياته سارق أغنـــام وجياد ، وانتهى الى سرقة المركبات وقطع الطريق · وأعتقد أنه قتل عددا من الناس ويبدو لى يا مولى أن علينا أن نعلم الناس كيف يكرهون اللصوص لا أن يجعلوا منهم أبطالا

وقالت مولى فى تعب :

ـ طبعا ·· طبعا يابيل ·· انك على حق · ولكن أرجوك أن تكف عن الحديث قليلا لانى متعبة متوترة الاعصاب

ومرت الايام ومولى تزداد مكانتها فى مجتمع الوادى الاخضر ·· وقد بلغ من أهمية مكانتها أنها كانت تجتمع مع الذين يحضرون الى غرفة مكتب المستر هوايتسيد فى مختلف الشئون التى تهم سكان الوادى ، ولا سيما شئون الزراعة والتعليم ، فاذا انتهى الحديث الجاد ، ظلت جالسة لتشترك فى الاحاديث العادية الخاصة بالمحاصيل الزراعية وآخر الانباء الاجتماعية وغير ذلك مما يدور بين المجتمعين فى قاعة للاستقبال

وكان برت مونرو قد انتخب عضوا فى مجلس ادارة المدرسة ، وأبدى من النشاط والاهتمام ما جعله من أنشط الاعضاء وأكثرهم أهمية · وكان هو الذى اقترح اقامة الحفلات الراقصة فى المدرسة ، وأصر على أن يقوم التلاميذ وبعض السكان بالرحلات الخلوية ، وبتقديم بعض المسرحيات التاريخية والعالمية فى نهاية الموسم المدرسى بل كان هو الذى اقترح تقديم بعض الجوائز المالية لاحسن التلاميذ علما وأخلاقا ونشاطا مدرسيا

وفى ذات مساء هبطت مولى من غرفتها الى قاعة المائدة · وكان مجلس الادارة مجتمعا فى مكتب المستر هوايتسيد · ولكنها قالت للمستر هوايتسيد :

ـ اننى لن أدخل الليلة ·· سوف أدعهم يتحدثون بحريتهم وبلا

حرج من وجود سيدة بينهم ، فأنا أحيانا أشعر أنهم يريدون أن يتبادلوا قصصا لا ينبغي أن تسمعها سيدة

ولكن المسز هوايتسيد قالت بحزم :

ـ بل ادخلي يا موللي ، ان مجلس الادارة لن يكون ذا فائدة بدونك لقد اعتادوا على وجودك بينهم ، وعدا هذا فأنا لا أحب أن يتبادلوا تلك القصص البذيئة فيما بينهم

وطرقت موللي الباب ودخلت ٠ وتوقف برت مونرو عن القصة التي كان يسردها ٠ ثم قال :

ـ كنت أحدثهم عن العامل الزراعي الجديد الذي استخدمته يا مس موللي ٠ وسوف أبدأ حديثي عنه من جديد ٠٠ لانه حديث طريف ٠ لقد كنت محتاجا الى عامل زراعي ، وعثرت على هذا الرجل راقدا تحت جسر ليناس ٠ وكان غائبا عن الوعي من فرط السكر ، ولما أفاق بعض الشيء ، علمت منه أنه في حاجة الى عمل ٠ وألحقته بالعمل معي ، ولكنني وجدت أنه لا يساوي مليما واحدا الا أنني لا أستطيع أن أتخلص منه ، انه شخصية عجيبة شاهدت كل شيء وذهبت الى كل مكان ٠ يكفي أن يسمعه أحد يتحدث عن مغامراته ورحلاته والاعمال التي مارسها والاماكن التي شاهدها ، فيتعلق به ولا يطيق فراقه ٠ ان أولادي أصبحوا متعلقين به الى حد أنهم يرفضون أن أطرده حتى لو رغبت في طرده ٠ انهم يجلسون أمامه وينصتون اليه في شغف وذهول ٠ وهو يذهب الى ساليناس مرتين في الشهر ويسكر حتى يفقد الوعي ٠ انه واحد من هؤلاء المساكين المدمنين للخمر ادمانا دوريا ٠٠ اعني أنه لابد منها كل يوم ، وانما بين الحين والآخر ٠ وكثيرا ما أرسل الى رجال الشرطة في ساليناس لكي أذهب وأحمله في مركبتي مخمورا ٠ وعندما يفيق من سكرته ، نفاجأ ببعض الهدايا التي يحملها في جيبه لنا وللاولاد ٠ ان الانسان لا يستطيع الا أن يحب رجلا كهلا رغم أنني لم أستفد منه عمليا بما يساوي دولارا واحدا

وشعرت موللي بالغثيان والالم ٠٠ ان هذه الاوصاف تنطبق على أبيها تماما ٠٠ وكان الرجال يضحكون عاليا ، بينما قال واحد منهم :

ـ انك رقيق القلب أكثر مما ينبغى يا برت • وليس من المعقول أن تستبقى رجلا لتسلية أولادك •• يجب أن تتخلص منه فى أسرع وقت

ونهضت مولى واقفة وهى تخشى أن يفطن أحد الى حالتها أو أن يسأل أحد عن اسم هذا الرجل ، وقالت معتذرة :

ـ اننى أشعر بالتعب الليلة يا سادة ، وأرجو أن تسمحوا لى بالصعود الى غرفتى

ووقف الرجال احتراما لها فى أثناء خروجها ، وألقت برأسها على الوسادة فى غرفة نومها وراحت تهتف :

ـ لا •• لا •• ليس هذا معقولا •• مستحيل أن يكون هذا الافاق السكير أبى •• ان أبى سيعود مرتديا بذلة فاخرة وفى يده باقة من الازهار النادرة يقدمها الى معتذرا عن غيبته الطويلة

وكانت الايام التالية مثار فزع لها .. كانت لا تخرج من البيت الا الى المدرسة • واذا سارت فى الطريق للمدرسة ، تلفتت حولها ومدت البصر الى الامام وهى على استعداد اذا وقعت أنظارها على رجل غريب عن الوادى • ولكنها كانت تقول لنفسها : « لا •• اننى حمقاء •• لا داعى لكل هذا الخوف •• ليس من المعقول أن ينحدر أبى الى هذا الحد ! »

ومع هذا لم تكن تشعر بالامان الا فى غرفتها • وشحب وجهها من فرط القلق ، وانطفأ البريق من عينيها ، وبدت كأنها تعانى من مرض خفى

وكانت المسز هوايتسيد تعنى بها وتسألها دائما عن سبب شحوبها وتعرض عليها أن تستدعى طبيبا لفحصها • ولكنها كانت دائما تشكرها وتؤكد لها أنها بخير •

ولما لم يحضر برت اجتماع مجلس الادارة التالى ، شعرت بفيض مفاجىء من السعادة ، وارتد البريق فجأة الى عينيها حتى ان بات هامبرت نظر اليها وقال فى خجل :

ـ انك الليلة أحسن حالا يا مس جوردان ••

وقالت ضاحكة :

ـ آه •• نعم •• كنت متوعكة فى الايام الماضية •• ويبدو أنها

نوبة برد أهملت التحصن منها

وبعد ساعة من الاجتماع ، اذا برت مونرو يقبل ويقول معتذرا :

ـ لقد تأخرت عنكم ·· الواقع أننى فى الطريق اليكم عنـدما جاء أحد رجال الشرطة من سالييناس وأخطرنى أن العامل الزراعى الجديد موجود بسجن المدينة بتهمة السكر والعربدة ، وقد جئت لاستأذن منكم فى الذهاب لاستلامه

وشحب وجـه موللى فجـأة ·· وانطفأ البريق من عينيها مرة أخرى ، ولكن بات هامبرت قال لبرت مونرو :

ـ أعتقد أن مجتمعنا هنا يا مستر مونرو لا يتسع لمثل هـــذا النوع من الافاقين والسكيرين ·· أما المدينة فانها تتسع لامثاله

وقال برت فى ارتباك :

ـ نعم ·· نعم ·· ولكننا نعطف عليه فقط

ـ ان العطف عليه سيزيده امعانا فى هـــذا السبيل · أما اذا أردت أن تخدمه ، فيجب أن تذهب اليه ، وأن تعمل على الحـــاقه باحدى المصحات الخاصة بمدمنى الخمر ·· وهناك سيجعلون منه رجلا جديدا جديرا بالحياة فى المجتمع البشرى

ونظر برت الى الجميع كأنه يريد أن يأخذ الاصوات ·· وأدرك المجتمعون ما يريده منهم ، فرفعت الاغلبية أيديهم بالموافقـــة على اقتراح بات هامبرت

وفجأة قال بيل هوايتسيد :

ـ ولكنك لم تخبرنا يا مستر مونرو حتى باسم هذا العامل !

وقبل أن يرد برت مونرو ، كانت موللى تعتذر عن البقاء بتعب مفاجىء ، وتسرع بمغادرة الغرفة وهى تشعر بمزيد من النفور من بيل ، وبمزيد من الميل الى بات هامبرت

وتنهدت فى ارتياح وهى تأوى الى غرفتها وتقول لنفسها :

ـ ما أشد حماقتى ·· كيف أفكر أو أتصور أن مثل هذا الافاق السكير يمكن أن يكون أبى الغائب !

الفصل السابع

البيت المكسو بالزهور

كان والدا بات هامبرت قد تجاوزا الاربعين من العمر عندما ولداه • ومن ثم كان كل منهما قد تجاوز الستين وامتلأ جسمه بالامراض ونفسه بالعقد قبل أن يصل هو الى العشرين . وهكذا عاش هذا الابن الوحيد ، منذ طفولته ، فى جو من الشيخوخة والمرض والتذمر والشكوى • وكان والداه ، وهو ينمو ، يحتقران آراءه لانه صغير غير مجرب ، وكانا يقولان له دائما :

« عندما تبلغ من الكبر ما بلغنا فسوف تتغير نظرتك للامور »

وبعد ذلك كانا يحتقران شبابه لانه وصل اليه بلا كفاح أو مصاعب أو عقبات • أما شيخوختهما فهى امتياز يجعلهما يصلان الى حد القداسة ، لانها زاخرة بتجارب الحياة والنظرات الصائبة والكفاح المضنى . بل ان مرض الروماتزم الذى أصيبا به اعتبراه ثمنا لما أضفته عليهما الحياة من الحكمة وقدرة الاحتمال ، وكانا يوهمان بات دائما بأنه ليس للشباب أية ميزة أو فضيلة • بل انه تعثر ومحاولات للوصول الى عالم الحكمة والاستقرار فى سن الشيخوخة

ولما بلغ بات السادسة عشرة ، حمل على عاتقه كل العمل فى المزرعة ، وكل العمل فى البيت المكون من أربع غرف : غرفة مغلقة دائما ، كانت تستعمل لاستقبال الزائرين ، وغرفة جلوس تشيع فيها دائما روائح الادوية والمراهم والعقاقير ، وغرفتان للنوم •• ثم المطبخ الكبير الرحيب

وكان الوالدان العجوزان يجلسان على مقعدين مزودين بالحشايا ومتأرجحين ، ويشكوان فى مرارة اذا لم يترك بات عمله فى المزرعة بضع مرات كل يوم ليضرم النار فى المدفأة

وعاش الاثنان حتى بلغ بات الثلاثين من عمره •• وكانا فى أواخر أيامهما يزدادان سخطا على الحياة ، وتشبثا بها • ولكن

بات عاش شـــهرين فى عذاب رهيب .. عذاب تمريض والدته ثلاثة أسابيع حتى وافاه الاجل المحتوم ، وما كادت توارى الثرى ، حتى أصيب أبوه بالتهاب رئوى ، وبقى بات بجانبه يمرضه الى أن سلم نفسه فى النهاية لملك الموت

وانصرف المشيعون فى مركباتهم بعد أن صافحوا بات وواسوه .. وبقى هو فى المدافن ينظر الى قبرى والديه دون أن يدرى ماذا يفعل بعد أن تبين لاول مرة فى حياته أنه لم يعد هناك من يطلب منه شيئا !

وكانت بوادر الخريف فى الجو .. ريحه التى تهب فجـأة ثم تتلاشى . وكانت الحمائم البرية تجلس فى صف طويل على سياج المدافن .. صامتة .. ساكنة وتحركت قطعة من ورق بنى اللون وتعلقت بقدم بات ، فانحنى وانتزعها وألقى بها بعيـــدا . وسمع قعقعة عجلات تقف بباب المدافن ، ثم رأى المستر آللين صـــاحب المتجر العام يتقدم نحوه ، ويقول فى شىء من الحرج :

ــ لقد ظننا أنك ستذهب الى أى مكان الليـــلة .. فاذا شئت يمكنك أن تأتى للعشاء معنا .. ويمكنك أيضا أن تبيت ليلتك فى بيتنا

وأفاق بات من ذهوله ثم قال :

ــ أعتقد أنه ينبغى أن أرحل من هذا المكان .. ولكننى لا أدرى .. ان هذه أول مرة أشعر فيها أنى وحيد تماما فى الحياة ..

ــ كل شىء يبدو فى أوله صعب غير مألوف .. ولكنك ستألف حياتك الجديدة الى أن .. أن ..

وتوقف أللين عن الحديث وقد رأى أن التحدث عن الزواج فى مثل هذه الظروف غير لائق ، ومن ثم قال مستدركا :

ــ لماذا لا تأتى وتقضى معنا الليلة فى البيت ؟

وقال بات كأنه يتحدث عن ذكـــرى :

ــ اننى لم أتناول العشـــاء خارج البيت ولا مرة واحـدة فى حياتى

ثم أومأ الى القبرين وقال مردفا :

ــ كانا يكرهان الخروج بعد الغـــروب لان هواء الليـــل كان يؤذيهما

وقال آللين :

ـ لعل الوقت قد حان لتناول عشـــائك خارج البيت . ولست أرى أن تعود وتبيت ليلتك فى بيتك الساكن الخـــالى .. ان على الانسان أن يرعى مصلحته الخاصة بين الحين والاخر

وتناول ذراعه ومضى به نحو بوابة المدافن وهو يقول :

ـ اتبعنى فى مركبتك

ولما خرجا ، وجد أللين نفسه يقول بحكمة :

ـ من المناســـب أن يموت الانسان فى الخـــريف .. أما فى الربيع ، فانّ كل انسان يحب أن يســـتمتع بمنظر الازهار وهى تتفتح ، وبالحياة وهى تتجدد

ولكن بات هز رأسه وقال :

ـ ما كان هـــذا يهمهما فى شىء يا مستر اللين . بل لم يكن يهمهما حتى أن يسألا عن المحصول . وكانا يكرهان المطر لانه يثير آلامهما الروماتزمية ، ولكنهمـــا كانا يتشـــبثان بالحياة .. ولا أدرى لماذا ؟

وكانت مائدة العشاء فى بيت المستر آللين تحمـــل شرائح من اللحم البارد ، وبطاطسا مشوية بالبصـــل ، وثريد الخبز بالعنب ، وكانت المسز آللين تحاول مواساة بات بالحديث عن فضـــائل والديه فتحدثت عن كيف كآنت أمه طيبة القلب ، تحب الناس ، وكيف كان أبوه كريما مبسوط اليد ، ولا يرد عن بابه ذا حاجة . ولكن بات كان يعرف أنها تكذب فى حديثها عنهما لتسرى عنـه . ولم يكن هو فى حاجة الى هذه التسرية . بل انه لم يكن يشـــعر بالحزن العميق لان حالة الذهول كانت تسيطر عليه ..

ولكن هذا الذهــول لم يكن يمنعه من التفكير فى غرفات البيت .. غرفة الجلوس المشبعة الجو بروائح العقاقير والادوية والمراهم، وغرفة الاستقبال المغلقة دائما كأنها غرفة للاشباح .. وغـــرفة النوم التى مات فيها والده ، الواحد بعد الآخر ، وغرفة نومه التى لم يسترح فيها ليلة واحدة بنوم عميق . كان يشعر بالرهبـة من العودة الى هذه الغرف . كيف سيمكنه الحيـــاة فيها .. وكيف سيقدم على تنظيفها .. وكيف سيواجه أشباح والديه فى كل شىء يراه أو يلمسه !

وألح عليه آللين أن يبيت ليلته معه • ولكنه اعتذر شاكرا ووعدهما واستقل مركبته • وكانت الليلة مظلمة لا يضيئها غير نجوم خافتة تلمع بين الحين والآخر من فرجات السحاب • وخطر بباله أن يمضى الى بيت المستر هوايتسيد ليتحدث معه ومع زوجته •• ومع المدرسة الجديدة ، المس موللى جوردان • لقد تحدث معها بضع مرات ، وشعر فى كل مرة أنه يستريح الى حديثها والى آرائها لا سيما فى اجتماعات مجلس الادارة التى كان يحضرها خلسة عن والديه

وأفاق من أفكاره على دقدقة حوافر جواده •• وعلى صيحات طيور الليل ، وعلى ترفيف الرياح بين الاغصان • ولكن صوت والديه كان أوضح فى أذنيه عندما كان والده يقول : « لسوف تسقط الثلوج غدا •• وأنا أكره الثلوج أكثر من كراهيتى للفيران » • وترد أمه قائلة « بمناسبة الحديث عن الفيران ، فأنا أشعر بأنهم فى غرفة الخزين • وأنا لا أدرى هل وضع بات الفخاخ هذا العام أم لا • انه عتاد أن ينسى كل شىء فى هذه الايام »

ويرد بات عليها قائلا : « لقد وضعت السم فى المخزن • أن الفخاخ لم تعد تجدى »

وتقول الام بصوت كله الشكوى « ان القطة خير من هذا وذاك ، ولا أدرى لماذا لا يكون لدينا قط أو اثنان »

ويرد بات قائلا : « حاولت كثيرا أن أقتنى قطة ، ولكن القطط تهرب دائما من هذا البيت »

وكان البيت متشحا بسواد الليل موحشا عندما وصل اليه ، وأشعل بات المصباح البترولى وأضرم النار فى مدفأة المطبخ الكئيبة ، وفيما كانت ألسنة النار تتراقص فى المدفأة ، تراخى فى مقعد وثير وشعر بالراحة الكاملة • وخطر بباله أنه ليس أفضل ولا أعذب من أن يحضر سريره الى المطبخ وينام بجوار المدفأة • أما تنظيف البيت فيمكن ارجاؤهما الى وقت آخر

ولما فتح باب غرفة الجلوس ، استقبلته موجة من الرطوبة والهواء البارد الموحش ، وانسابت الى أنفه روائح زهور الجناز ممتزجة بروائح العقاقير وفتح باب غرفة نومه وأسرع بحمل

سريره الصغير الى ذلك المطبخ

وبعد قليل أطفأ بات المصباح وأوى الى فراشه مستمتعا بالدفء وبصوت تكسر الوقود فى النار . وساد السكون برهة .. ثم اذا هو يخيل اليه أن البيت ازدحم بأرواح شريرة معادية . واكتشف بات أنه متوتر الاعصاب بارد الجسم . كان يرهف السمع الى غرفة الجلوس .. الى صرير الكرسى المتأرجح وغطيط أبويه النائمين . وارتفع صرير فى أخشاب البيت . ورغم أن بات كان يرهف السمع ليسمع شيئا ، الا أن الصرير جعله يقفز من سريره فزعا .. ولم تحتمل ساقاه المرتعشتان ، فعاد يجلس وقد تفصد العرق من أنحاء جسمه ، واندس بين أغطية الفراش وهو يحس بالعزلة والوحشة .. وكان الليل ساكنا

وفى الصباح التالى استيقظ بات وهو يشعر أن هناك واجبات ينبغى أن يؤديها . وحاول أن يتذكر هذه الواجبات .. آه .. انها عملية ترتيب وتنظيف البيت .. ان المائدة التى يوضع عليها الكتاب المقدس مقلوبة ، وآنيات الزهور الدائمة النضارة فى غير مواضعها .. وجميع الغرفات فى حاجة الى تنظيف وترتيب . وكان بات يعرف أن عليه أن يقوم بهذا كله رغم احساسه الشديد بالنفور من القيام بهذا العمل . وتحسس بيده على مقبض باب غرفة الجلوس . ولكن يده توقفت عن الحركة . ان عقله ينفر من مجرد النظر الى المقعدين المتأرجحين .. والى المدفأة الخامدة ، والى بعض الكتب المتناثرة .. والى الآنية المقلوبة .. والى كل شىء يذكره بوالديه

ولكن لا بد أن يقوم بواجبه مهما تكن مشاعره !

وأضرم النار مرة أخرى فى مدفأة المطبخ ، وبعد أن تناول طعام الافطار وراح يشرب القهوة ، أخذ يفكر تفكيرا منطقيا متسلسلا لم يكن لديه عهد من قبل . وشعر بالدهشة البالغة من هذه الافكار العجيبة التى بدأت تتردد على ذهنه

وقال لنفسه :

« لماذا يجب أن أدخل هذه الغرفات ؟ ألم يعد البيت بيتى ؟ أليس من حقى أن أدخل غرفاته أو أرفض الدخول ؟ هل هناك من

يهمه أن أدخل أو أبقى حيث أنا ؟ »

وشعر فى تلك اللحظة باحساس الصبى الذى يهرب من الذهاب الى المدرسة ليمضى فى الغابات حرا طليقا ..

ولكن صوت أمه لم يلبث أن طرد هذه الافكار من ذهنه :

« يجب يا بات أن تنظف البيت . انك لم تعد تهتم براحتنا ..»
واستشاط بات غضبا .. وامتلأت نفسه بالمقاومة والتحرر ، ورد على صوت أمه قائلا :

« ان أمى ماتت .. وان هذا الصوت نابع من مكان شرير يريد أن يعذبنى ، اننى الان حر .. أفعل ما أريد بلا أوامر من هنـــا

أو من هناك . ولن يعرف أحد قط ما اذا كنت نظفت ورتبت البيت أم لا . اننى لن أدخل هذه الغرفات .. أبدا .. أبدا »

وقبل أن يتراجع عن عزمه ، اسرع وأغلق باب غرفة الجلوس بالمفتاح من الخارج ، وألقى بالمفتاح فى دغل من البوص وراء سياج المطبخ . ثم دار حول البيت وأغلق المصاريع الخشبية للنوافذ وثبتها بالمسامير الطويلة ، فيما عدا نوافذ المطبخ

ولكن بهجة حريته الجديدة لم تستمر طويلا ، ففى أثناء النهار كان العمل فى المزرعة يستغرق كل تفكيره ، ولكنه لا يلبث قبل أن يأتى المساء ، أن يشعر بالوحشة الى واجباته القـــديمة التى

كانت تجعل اليوم يمضى سريعا . وكان فى الوقت نفسه يشعر بالخوف من العودة الى البيت . حقا لقد اغلق الابواب والنوافذ على الاشباح العابثة فيه ، ولكنه لم يكن قادرا على منعهـــا من ازعاج تفكيره

وفى تلك الليلة ، بعد أن فرغ من اعداد عشائه ، جلس بجانب المدفأة وهو يشعر بالوحشة والعزلة . وراح ينصت الى الاصوات المسترقة فى البيت ، والى الهمسات الخفية والطـــرقات الرقيقة

المترددة . وقد بلغ من تركيز سمعه أنه بدأ يسمع أرجحة المقعدين وحفيف نزع سدادة من زجاجة دواء ، ولم يستطع احتمال هـــذا الموقف طويلا ، فنهض الى مربط الجواد وشده الى المركبة وانطلق به الى متجر المستر أللين

وكان هناك ثلاثة رجال جالسين حول مدفأة مضرمة النـــار .

وأفسحوا له مكانا بينهم · ولم يحاول أحدهم أن ينظر الى بات ، لان النظر الى رجل فى ملابس الحداد لا يليق كالنظر الى رجل على كرسى متحـــرك · وجلس بات وحملق فى المدفأة وقال للمستر أللين :

ـ ذكرنى لآخذ معى كيسا من الدقيق

وأدرك الرجال جميعا ما يعنى · كانوا يعرفون أنه فى غير حاجه الى دقيق ، ولكن كلا منهم ، فى ظروف كهذه ، ما كان ليفعل غير ما فعله بات ·· لابد انُ يكون عميلا أولا لصاحب المتجر اذا أراد أن يجد لنفسه مكانا فيه

وقال أللين وهو يحرك جمرات النار فى المدفأة :

ـ لا شك أنك تشعر بالوحشة وأنت تقيم بمفردك فى بيتك الكبير ·· ولكن هذا الشعور لن يلبث حتى يزول

وقرر بات أن يشكر أللين على كلماته المواسية ، عمليا ، بقوله :

ـ وأنا أيضا فى حاجة الى كيس تبغ وبعض الذخيرة لبندقية الصيد

وقرر بات أن يغير اسلوب معيشته وأن يسعى الى التعـــرف بالناس والحياة بينهم ، فكان فى أثناء النهار يعمل جاهدا فى مزرعته، وفى الليل يبحث عن أية مجموعة من رجلين أو ثلاثة لينضم اليهما ·· سواء كانوا فى متجر أللين أو بيت أحد ســـكان الوادى واذا أقيمت احدى الحفلات الراقصة فى المدرسة كان بات أول الحاضرين وكان اخر المنصرفين

وفى الاجتماعات التى كانت تعقد فى بيت هوايتســـيد ، كان بات يحضرها جميعا ·· ولما بدأت المس مولى جوردان تحضر هذه الاجتماعات ، ابتدأ يشعر بجمال الحياة ، وراح يختلس النظرات الى مولى وهو يرى أنها امنية من أجمـــل الامانى التى يتمنى أى شاب فى مثل ظروفه أن تتحقق له بالزواج

وبلغ من شغفه بالاجتماعات أن أصبح خبيرا فى خلق المناسبات المثيرة التى يجتمع من أجلها رجال ونساء الوادى ، وكان يحاول دائما أن يلفت الانظار اليه ، ويشعر الجميع بوجوب وجوده فى كل اجتماع منها

وكان من ناحية الشكل شابا عاديا ·· لا هو بالوسيم الـــذى يفتن العذارى ، ولا هو بالدميم الذى ينفر الناس منه ·· ولكن كان وجهه ينم عن خيبة القلب وصفاء النفس ونقاء المعدن ··

واستطاع بات بعد سنوات معدودة من وفاة والديه أن يدخر بضعة آلاف من الدولارات ·· كانت نفقاته قليلة ، وكانت المزرعة تزدهر تحت عنايته وبفضل انكبابه على العمل فيها ، أما البيت ، فكان يعيش فى مطبخه الواسع الرحيب ·· يأكل فيه وينـــام ·· ولا يحاول قط أن يدخـــل غرفات البيت الأربع بعـــد أن أغلق أبوابها ونوافذها

وتصاعدت أعواد الياسمين على جوانب البيت ·· وأهمل بات أمرها ، وراحت الاعواد تتكاثر وتنتشر وتلتف على جـدران البيت وسقفه حتى أوشكت أن تغطى كل جزء منه ·· فى الربيع والصيف وبوادر الخريف كانت الازهار البيضاء العاطرة تنبثق بين الاوراق والاعواد بكثرة مذهلة تجعل الناس الذين يمرون فى الطريق أمام البيت يتوقفون وينظرون اليه فى دهشة واعجاب ويتمنون لو كان لكل منهم بيت رائع مثله !!

وكذلك كانت حديقة الفاكهة الملحقة بالمزرعة من أجمل وأخصب حدائق الوادى كله · وكان بات شديد الاهتمام بالشليك · وكانت ثماره فى حديقته تنضج قبل أوانها ببضعة أسابيع ، ومن ثم كان يبيعها فى اسواق مونتريرى باسعار مرتفعة

وفى ذات يوم من أيام الصيف الاولى ، كان بات مشغولا بالعمل فى حديقته ·· وكان يعمل وراء صف من الاشـــجار الواقعة على مقربة من الطريق العام ، وفجأة سمع صوت فتاتين تتحدثان وهما تقتربان فى الطريق ، وعرف الفتاتين من صوتهما رغم أنـــه كان مختفيا وراء مجموعة من الاشجار ·· عرف انهما ماى مونرو ، ابنة برت مونرو الوافد الجديد على الوادى ، والمس مولى جـــوردان المدرسة الجديدة

وأرهف بات أذنيه حين سمع مولى تقول لماى :

ـ انظرى يا ماى ·· ما أجمل هذا البيت المكســـو كله بأزهار الياسمين ؟ اننى فى حياتى لم أر بيتا أجمل من هذا

وردت ماى ضاحكة :

ـ ألا تعرفين بيت من هذا ؟

ـ لا ٠٠

ـ انه بيت ذلك الشاب الوادع بات هامبرت !

ـ أحقا ؟ لم اكن أعرف أنه يقيم فى بيت جميل الى هذا الحد٠٠ ترى هل هو من الداخل جميلا هكذا ٠٠

وخيل الى بات أن ماى هزت كتفيها وهى تقول :

ـ الواقع أن أحدا لم يدخل بيته منذ سنوات ٠٠ حتى قبل وفاة والديه

ـ لا شك أنه بيت من الطراز الفيرمونتى ٠٠ الطراز الذى يجعل الانسان مستريحا فيه وكأنه فى جنة

وقالت ماى :

ـ اننى لم أر فى حياتى بيتا من هذا الطراز يا مولى ٠٠

ـ كان أبى يحدثنا عنه كثيرا ٠٠ يحدثنا عن نوع مدفأته ٠٠ وعن مقاعده الوثيرة ٠٠ وسجاجيده ٠٠ وألوان جـــــدرانه ٠٠ والاشياء الصغيرة التى تزينه ٠٠ و ٠٠

وصمتت مولى برهة ثم أردفت بصوت حالم :

ـ وما اكثر الليالى التى كنت أحلم فيها بالاقامة فى بيت من هذا الطراز ٠٠

وتلاشى صوت الفتاتين مع ابتعادهما فى الطريق ٠٠ وشعر بات أن آخر أمل له فى الزواج من مولى يتلاشى مع صوتها ٠٠

وخيل اليه أن أصابع باردة تعتصر قلبه وهو يتصور ماذا يحدث لو طلبت مولى منه أن يعقدوا أحد اجتماعات مجلس الادارة فى بيته لكى تراه من الداخل ؟ ماذا يستطيع أن يفعل أو يقـــول لو حدث شىء من هذا ؟

وماذا يمكن أن تقول مولى لو ٠٠ لو حـــدث وعرفت أن ذلك الكساء من الزهور العاطرة انما يخفى جيفة رهيبة تثير فى النفس الشعور بالغثيان !!

ووقف برهة ينظر الى البيت ويدهش لجماله الخارجى الـــذى لم يكن قد فطن اليه من قبل ٠ وفجأة طرأت على ذهنه صورة خيالية

.. صورة بيت فيرمونتى الطراز من الداخل .. وكان قد سمع بدوره أن البيوت الفيرمونتية تبدو لامعة متألقة من الارضيه الباركيه الى السقف والجدران • وتذكر صورة لمثل هذا البيت كان قد رآها فى احدى المجلات المصورة

وذهب بات فى تلك الليلة الى سالينناس • وكان يشعر أنه يتصرف بقوة غامضة تدفق الى هذا التصرف ، وهناك •• فى المكتبة العامة بالمدينة طلب من الموظفة المختصة أن تطلق على صور بعض البيوت الفيرمونتية •• وقالت الموظفة :

ـ لسوف نجد هذه الصور فى بعض المجلات المصورة • هلم •• يمكننى أن أقدم لك عددا منها

وظل يتصفح هذه المجلات مستغرقا حتى نبهته الموظفة الى أن موعد اغلاق المكتبة قد حان • وغادر المكان فى الطريق الى بيته وذهنه مشغول بالصور التى رآها •• لقد رأى غرفا قائمة على تصميم معين •• وكل تصميم له زخرفة مناسبة •• وكل قطعة أثاث لها موضع خاص •• بل ان الوان الارضية والجدران والاسقف يجب أن تتناسق وتتناسب مع الاثاث وطراز الزخارف• ولم يكن يعرف من قبل أن الغرف تصمم على هذا النحو •• وانه يجب أن يكون لكل غرفة شخصية مميزة

ولم يستطع بات أن ينام تلك الليلة . لقد ظل فى سريره مؤرقا يفكر فى تلك الصور الجميلة التى رآها ، ونهض فجأة وألقى نظرة على رصيده فى البنك •• ثم ابتسم فى اطمئنان •• ان رصيده يمكن أن يتحمل بسهولة اعداد بيته من الداخل على الطراز الفيرمونتى •• وكان ذهنه قد استقر على طراز معين بسيط ••• المطبخ الكبير الذى يصلح مطبخا ومكانا لتناول الطعام ، وغرفة متوسطة للنوم •• ثم تحويل الغرفات الثلاث الاخرى الى قاعة كبيرة طولها عشرة أمتار وعرضها خمسة • لقد رأى هذا الطراز فى احدى الصور الملونة •• ورأى الاثاثات والزخارف اللازمة لتنفيذ مثل هذا الطراز

وفجأة شعر بالخوف •• كيف سيفتح الباب المؤدى الى داخل البيت ؟ وكيف سيواجه هذه الغرفات التى تركت مغلقة سنوات

وسنوات ؟ ولكن ٠٠ اذا أراد أن يحقق أعذب أمنية فى حياة موللى، فيجب أن يتحرر من الخوف ويواجه أى عدد من الاشباح يمكن أن نكمن له داخل البيت

ونهض بعزم قوى ٠٠ وأمسك بأجنة حديدية وفتح بهـــا باب غرفة الجلوس ٠٠ وتراجع قليلا أمام رائحة الرطـوبة والعفن ٠٠ ولكنه لم يلبث أن استجمع شجاعته ودخل ٠ ثم خرج حامــــلا المقعدين المتأرجحين ، وألقى بهما فى الارض الفضاء الواقعــــة وراء سياج المطبخ ٠٠ وظل يروح ويجىء وهو يحمل الى الخارج كل شىء ٠٠ المقاعد والاوانى والحشايا والاسرة والزهور الذابلة والكتب ٠٠ والسجاجيد النخرة والملابس والادوية ٠٠ كل شىء يمكن أن تقع عليه نظراته ويداه ٠٠ وكان يعمل كالمحموم ٠٠ يعمل بقوة خفية تدفعه كأنها السحر ٠٠ وارتفعت الكومة الكبيرة من الاثاثات القديمة المتعطنة ٠٠ وآنتزع الاوراق الملونة الممــزقة التى كانت تكسو جدران البيت كله ٠٠

وسكب بات البترول على هذه الكومة واشعل فيها النـــار ٠٠ وراح يتأمل هذه القطع القديمة وهى تتكسر وتئز محترقة ٠وكان يشعر أنه يرى نيران احتفال بعيد من الاعياد القومية
وكان يصيح بها قائلا :

ـ كم عذبتنى أعواما طويلة ٠٠ كم اخذت من قوتى وشــــبابى فى تنظيفك وترتيبك ٠٠ كم سمعت من عبارات التقريع واللــوم بسببك ٠٠ اذهبى طعمة للنار ٠٠ أنت والاشباح المحيطة بك

ثم يصمت حتى يلتقط أنفاسه ويعود صائحاً :

ـ كنت تظنين أيتها النفاية القذرة اننى لا أملك الشجاعة الكافية لاحراقك والتخلص منك ٠ أليس كذلك ؟ أرأيت الان أننى شجاع ٠٠ اننى قادر على التخلص منك ؟!

وتزداد النار اشتعالا ٠٠ وترتفع أصــــــوات الازيز والتكسر للاثاثات المحترقة وكأنها عواء اشباح معـــذبة ٠ وفرقعت الاوانى الزجاجية والخزفية ٠ وراح بات يتواثب كأنه محارب انتصر فى معركة موت أو حياة

وفى أصيل اليوم التالى ، مضى بات فى سيارته الفورد القديمة

الى ساليناس واشترى عددا من المجلات الخاصة بتصميمات البيوت من الداخل .. وكلما أمعن النظر فيها ، وجد أن التصميم الـذى اختاره فى أول الامر يتكرر كثيرا فى هذه المجلات وكأنما يقول له « اننى أفضل التصميمات فعلا » وكان كل تصميم يبدو فى أثاثات وزخارف مختلفة ، ولكنها متناسقة دون أن يخرج عن الطـــابع الاساسى .. غرفة نوم متوسطة .. وقاعة جلوس كبرى .. ومطبخ واسع لتناول الطعام والجلوس بجوار المدفأة واســـتقبال بعض الزائرين المقربين

وازداد احساسه بالبهجة والحماس أنه كان يرى فى نفســه المقدرة على القيام بكل التغييرات اللازمة بنفسه ، وبدون استعانة بأحد .. كان يتخيل العمل على نزع الحواجز التى تفصـل بين الغرفات الثلاث لتكون غرفة كبرى .. وهدم جوانب من النوافذ لتوسيع قواعدها ووضع مصاريع خشبية وزجاجية جديدة ، وتكبير حجم المدفأة ، وتلميع الارضية ولصق الورق على الجدران ، نعم ، كان بات يعرف أن فى مقدوره أن يفعل هذا كله . وشعر بيديه تتلهفان على العمل ، وقال لنفسه :

« غدا سأبدأ »

ثم فاجأته فكرة أخرى ، وعاد يقول لنفسه :

ـ انها تظن أن داخل البيت جميل مثل خارجه . وأنا لا أستطيع أن أجعلها تعرف أنى اقوم بتجميله .. لانها لو عرفت هذا لادركت أنى أســترق السمع الى حديثهـا مع ماى مونرو . وكذلك لا أستطيع أن أجعل سكان الوادى يعرفون ما أقوم به من اصلاحات ، والا لبدت فى أعينهم نظرات التساؤل ولكن .. ليس من حقهم أن يتدخلوا فى شـئونى ، وليس من واجبى أن أدور بينهم وأشرح لهم الاسباب التى جعلتنى أصلح بيتى من الداخـل . وعلى كل حال يحسن أن أقوم بالعمل ليلا .. »

وضحك لنفسه فى ابتهاج . لقد شعر بالانفعال وهو يفكر فى تغيير داخل بيته سرا ثم يفاجىء سكان الوادى بعد ذلك . ان فى مقدوره ان يقوم بالعمل بمفرده ، دون أن يفطن أحد . وبعد أن يفرغ ، يقيم مادبة لسكان الوادى ثم يتظاهر بأن بيته كان دائما

على هذا النحو ·· ولا شك أن أحدا منهم لا يذكر كيف كان البيت من الداخل بعد مرور كل هذه السنوات

وهكذا نظم حياته · فى النهار يعمل بالمزرعة ، وفى المساء ينطلق الى البيت مبتهجا · وكانت الصورة التى يريد البيت علبها من الداخل معلقة فى المطبخ ، وكان لا يكف عن النظر اليها وهو يعمل فى توسيع قواعد النوافذ ، وفى تركيب المصاريع الجديدة ، وفى لصق الورق الفاخر على الجدران وفى صقل أرضيات الغرف وتلميعها وفى طلاء الاعمدة والابواب والنوافذ بالطلاء اللامع الذى كان يبدو كأنه الميناء ، وكان اذا احتاج الى مواد للعمل ، انطلق بسيارته القديمة الى ساليناس ليلا وعاد حاملا كل احتياجاته ، وكان يعمل كل ليلة حتى منتصف الليل ، ثم يأوى الى فراشه مرهقا وسعيدا

وكان طبيعيا أن يفتقد سكان الوادى · واذا سألوه فى المتجر عن سبب عزلته الفجائية ، أجاب فورا :

– اننى أدرس بالمراسلة ·· وأستذكر دروسى ليلا

ويسأله أحد الحاضرين :

– وماذا تدرس يا بات ؟

– أوه ·· نعم ·· اننى أدرس الهندسة المعمارية

– يجب أن تتزوج يا بات ·· لقد بلغت الثانية والثلاثين

ويحمر وجه بات ثم يقول :

– نعم ·· نعم ·· يجب أن أتزوج ·· وأرجو أن يتم هذا قريبا

وكان بات وهو يعمل فى الغرفة الكبرى يتخيل مسرحية صغيرة على هذا النحو : النار تتأجج فى المدفأة الكبرى وترسل وهجها الاحمر فى جوانب الغرفة ، والاضواء الخفية تنساب من أماكن غير منظورة وتنعكس على الارضية اللامعة والاثاثات المتألقة · « وسأذهب الى مسكنها وأقول لها عرضا : « سمعت أنك تحبين البيوت الفيرمونيه الطراز » ولكن لا ·· لا أستطيع أن أقول لها هذا · وانما يجب أن أقول : « هل تحبين البيوت الفيرمونتية الطراز ؟ حسنا ·· ان بيتى من هذا النوع »

ويهز بات رأسه وهو يشعر أن هذا الحوار غير مقنع ·· ما هكذا ينبغي أن يدعو رجل الفتاة التي ينوي الزواج بها · يحسن أن يفكر في حوار أقوى وأشد تأثيرا ·

وانتهى من اعداد الغرفة لاستقبال الاثاثات والتركيبات الزخرفية ·· وقرر أن يجعل المطبخ على حاله بعد أن يعيد طلاءه فقط ·· ان المطبخ واسع جدا ، ومريح جدا ·· ويحسن أن يتركه على هـــذه الصورة العادية حتى يكون وقع مفاجأة النظر الى القـــاعة الكبرى أشد وأقوى ، نعم ·· لسوف يقف معها في المطبخ أمام الباب ، ثم يفتحه بطريقة بسيطة ·· ثم يرقبها وهي واقفة تنظر الى الغرفـــة السابحة في الاضواء الخافتة ووهج نيران المـــدفأة ·· وانعكاس الاضواء على الارضية والاثاثات ·· والسجادة الفاخرة المعلقة فوق رف المدفأة تمثل نمرا راقدا ·· واناء القهوة الفضي الكبير على جانب من المدفأة ·· يلمع ويغري ·· والدفء الممتع الذي كأنه ذراعا أم حانية تستقبل ابنها العائد بالحرارة والحب

ترى ماذا ستقول في تلك اللحظة ؟ اذا كان التأثير شديدا في نفسها ، فلن تقول شيئا · وانما قد تعبر عن انفعالها بالبكاء ·· أو بالاقتراب من حالة البكاء · أو لعلها ستقف لحظة أو لحظتين ثم يقول بات « ألا تدخلين ؟ » وتفيق موللي من ذهولها وتنطلق في الحديث عن الغرفة بعبارات متقطعة من فرط الانفعال بينمـــا يرد عليها بات ببساطة قائلا : « نعم ·· نعم ·· انني أستريح دائما الى هذا الطراز من الغرف »

وفي اثناء العمل كان يقول لنفسه بصوت مسموع كأنما يتدرب على التمثيل في مسرحية « نعم · انني دائما أشعر أن هذه الغرفة جميلة ، وقد خطر لي في ذاك اليوم أن أدعوك لتشربي الشـــاي معي »

وتنتهي المسرحية على هذا النحو : مولي جالسة بجوار المدفأة ، ويداها الجميلتان في حجرها ، ونظرات عينيها زاخرة بالاحـــلام والاماني

وبعد ثلاثة أشهر تم اعـــداد كل شيء لاســـتقبال الاثاثات والتركيبات الزخرفية · وذهب بات ذات ليلة الى سان فرانسسكو

ومعه صورة ملونة للقاعة الفيرمونتية بكل أثاثاتها وتركيباتها ٠٠ وفى مكتب احدى شركات صنع الاثاثات وضع الصورة أمام المدير وقال له :

ـ أريد أن تفرش غرفتى على هذا النحو

ولما تأمل المدير الصورة ابتسم وأومأ برأسه ٠ وقال له باسما :
ـ كم تتكلف ؟

وصمت المدير برهة كأنما يقوم بعملية حسابية سريعة ثم قال :

ـ الاثاثات والتركيبات الزخرفية والستائر وكل شىء تتكلف ثلاثة الاف دولار

وصمت بات قليلا كأنما يحاول أن يتذكر ما لديه من رصيدمالى، ولما اطمأن الى أن الرصيد يتجاوز سبعة آلاف دولار ، وافق ، ودفع عقد الشراء بعد أن حدد مواعيد الاستلام بمدة لا تتجاوز شهرا

وظل يوالى تلميع الارضية فى انتظار وصول الاخطار بالاستلام٠ ولما وصلت الاثاثات الى ميناء مونتريرى ، راح ينقلها فى سيارته ليلا على أربع مراحل ٠ وتم كل شىء دون أن يفطن احد الى ما يقوم به ٠

ووضع بات الاشياء الجديدة كلها فى المخزن القريب من البيت، ثم راح يحملها قطعة بعد أخرى ويضعها حسب الترتيب الواضح فى الصورة ٠ ولما فرغ من هذه العملية فى اليوم التـــالى ، وقف يتأمل القاعة فى ذهول ٠٠ النار المتأججة فى المدفأة ٠٠ والاضواء الخفية المنعكسة على الارضية اللامعة والاثاثات ٠٠ والنمر المرسوم على سجادة معلقة على الجدار فوق رف المدفأة ٠٠ واناء القهوة الفضى الكبير الموضوع على جانب المدفأة ٠٠ ومضى الى المطبخ وأغلق الباب ٠٠ ثم عاد وفتحه وراح يتأمل المنظر من جديد ٠٠ وأخذ يردد ما سيقوله « اننى دائما أحب هذا الطراز من الغرفات » أو « خطر ببالى ذاك اليوم أن أدعوك لتشربى معى الشاى فى هذه الغـــرفة الفيرمونتية الطراز »

وفجأة طرأت بذهنه فكرة جعلت وجهه يشحب ٠ لقد تذكر أنه ليس من اللائق أن تحضر فتاة بمفردها لزيارة شاب أعزب ! وخيل اليه ان كل أحلامه تنهار ، وأن المسرحية فشلت قبل أن تبدأ

وجلس فى مقعد بجوار مدفأة المطبخ يفكر فى حل لهذه المشكلة، هل يدعوها مع عدد من رجال الوادى وزوجاتهم ! ان التأثير لن يكون شديدا كما يريد ‥ بل لعله سيشغل باستقبال الضيوف فلا يعرف وقع المفاجأة عليها

وأفاق على أصوات تتحدث وتقترب من باب المطبخ ‥ وخيل اليه أنه يحلم ‥ انه صوت مولى تتحدث مع ماى مونرو ‥ وكانت تقول لها :

ـ كيف يكون الحال لو أن المستر هامبرت لم يرض عن زيارتنا المفاجئة له ؟

وقالت ماى :

ـ اننا سنخبره بأننا لم نأت للزيارة وانما انعطفنا على بيته ونحن نمر بالقرب منه

وتقول مولى :

ـ ولكنه قد يشعر بالحرج حين يرانا نفاجئه على هذا النحو ‥ قد يكون بيته من الداخل غير مرتب ‥ لا سيما وهو يعيش فيه بمفرده !

ووثب بات واقفا وقلبه يخفق بعنف ، وشعر فجأة أن القدر يقف بجانبه لاول مرة فى حياته ‥ انه ما كان ليطمع فى مفاجأة أفضل من هذه ٠ ان مولى تظن أنها ستفاجئه وهى لا تدرى أى نوع من المفاجأة تنتظرها ‥

وفتح الباب لاستقبالهما فى شىء من الخجل ‥ وقالت ماى وهى تدخل أنها انعطفت الى البيت أثناء مرورها مع صديقتها مولى أمامه ‥ ان البيت من الخارج جميل الى حد الروعة ‥ واعترفت مولى أن الفضول دفعها لرؤيته من الداخل اذا لم يكن فى هذا أى تطفل على بات

ورحب بهما بات فى حماس ‥ وبعد أن جلسوا جميعا حول المدفأة فى المطبخ ، قال بات ببساطة :

ـ تفضلا بالدخول ! ‥ ان بيتى من الداخل على الطراز الفيرومنتى ‥ أرجو أن يعجبكما !

ولمح بجانب عينه أمارات الدهشة وهى ترتسم على وجه مولى

عند سماعها لكلماته ·· وقال لنفسه « احتفظى يا صغيرتى بدهشتك الكبرى عند رؤيتك لبيتى من الداخل »

وتقدم ببساطة وفتح الباب على مصراعيه ، وتراجع قليلا ليدخلا ·· ونظر الى وجه موللى وهو واقف الى جانبها ، الى الوراء قليلا ، وراح يسجل فى أعماق نفسه مشاعرها التى ارتسمت على وجهها فى تلك اللحظات ·· وكادت الدموع تطفر الى عينيه هو حين رأى أن ما ارتسم على وجهها من دهشة وذهول فاق كل ما كان يتخيله

وسمع موللى تتمتم كأنما تحدث نفسها :

ـ ان هذا يفوق الخيال ··

وقال بات ببساطة مصطنعة :

ـ اننى أحب دائما الطراز الفيرومونتى

وهتفت ماى فى دهشة :

ـ ولكن بيتك يا مستر هامبرت أجمل مما نراه فى السينما !

ولما جلسوا جميعا بجوار المدفأة ·· راح بات يصب القهوة من الاناء الفضى الكبير فى أقداح من الخزف الفاخر ·· وكان فى خلال هذا يرى نظرات موللى المليئة بالاحلام والامانى

الفصل الثامن

قصر في الهواء

عندما هاجر ريتشارد هوايتسيد الى غرب أمريكا فى عام ١٨٥٠ ، راح يبحث احتمالات البحث عن الذهب ، ولكنه لم يلبث أن نفض يديه من هذا البحث قائلا : « ان الارض فى موضوع الذهب لا تنتج الا محصولا واحدا ٠٠ أما الارض الزراعية فانها متنوعة المحاصيل »

وفى مرة أخرى قال مبررا حكمته :

– ان محصول الذهب اذا قسم على عدد كبير من الناس ، فلن يكون نصيب الفرد الا شيء بسيط ٠٠ أما الارض الزراعية فانها لا تكف عن الانتاج جيلا بعد جيل ٠٠ بلا انقطاع

وانطلق ريتشارد بمركبته الكبيرة وبكل ما يملك من مال ومتاع الى التلال والحقول فى ولاية كاليفورنيا ٠ وكان رأيه قد استقر على البحث عن مكان مستقر لاولاده الذين لم يولدوا بعد ، ولاولاد أولاده ! ولم يكن فى كاليفورنيا يومذاك أحد مثل ريتشارد ، يهتم بمستقبل أولاده وأحفاده قبل أن يولدوا !

وفى شفق الغروب من مساء يوم صاف جميل ، وصل بمركبته الكبيرة الى قمة تل يشرف على الوادى الاخضر ٠ ووقف جياده ، وراح يرنو الى مزارع الوادى الخصيب وقد أدرك أنه عثر أخيرا على ضالته ٠ لقد شاهد فى أثناء تجواله فى المنطقة ، أماكن كثيرة جميلة ، ولكن لم يكن بينها مكان أثار فى نفسه ذلك الاحساس العميق بالعجب والاعجاب ٠ وتذكر فى وقفته أهالى أثينا ولاسيدانيون عندما كان الكثيرون منهم ، فى غابر الزمان ، يخرجون بحثا عن أراض جديدة وصفها لهم الرواة والشعراء المجهولون ٠ وتذكر ما قرأه عن قبائل الازتيك وهم يخوضون المستنقعات ويجوبون البلاد بحثا عن مناطق جديدة ، مسترشدين بالصقور ٠ وقال ريتشارد لنفسه :

« لو تلقيت الان اشارة أو علامة من السماء ، لاستراحت نفسى وأيقنت أن هذه الارض ستعيش فيها سلالتى جيلا بعد جيل »

ونظر الى السماء .. ووجدها صافية خالية من الطيور والسحاب . وفجأة هبت نسمات كالتى تهب عادة فوق التلال عند الغروب ، وتحركت أوراق شجر السنديان .. وعلى جانب التل التقطت دوامة من الهواء بعض أوراق الشجر وألقت بها عند قدمى ريتشارد . وضحك الرجل ابتهاجا وقال :

ـ هذه هى العلامة .. وكم من مدينة أنشئت من أجل علامات بسيطة كهذه أرسلتها الآلهة

وبعد قليل هبط من المركبة ووضع الحجالات فى أرجل الجياد التى راحت تتحرك ببطء لتقضم العشب النضير حولها . وتناول عشاءه من اللحم القديد والخبز ، ثم بسط بعض البطاطين على العشب ورقد فوقها يرنو الى الوادى الاخضر فى شفق المساء . وكان الضوء كافيا لان يمد البصر الى بقعة من الارض خالية ..

بجوار تل صغير مكسو بالزهور .. لسوف يقيم فى هذه البقعة بيته الكبير .. الشبيه بالقصر .. وستكون حوله حديقة واسعة للزهور والفاكهة . وبالقرب منه سيقيم خزانا مرتفعا لتزويد القصر بالمياه ، وسوف يرفع المياه الى الخزان بالطلمبات .. وسيروى الحديقة من الجدول المائى الذى يراه بجوار التل المكسو بالزهور

.. وبدأت ظلال المساء تتجمع ، وازداد الوادى جمالا فى نظره .. وتألقت الاضواء الخافتة فى بيوت المزارع المتناثرة .. وخيل الى ريتشارد أنه ينظر الى عالم جميل من السحر والخيال

وعاد الى خياله عن القصر الصغير الذى سيبنيه .. لسوف تتألق الاضواء من نوافذه فى مثل هذه الساعة .. وسوف يفتح

بابه الكبير لينطلق منه أولاده ستة على الاقل وثمانية على الاكثر .. انهم يدخلون الشرفة الواسعة المحيطة بالقصر كله ، ويحملقون فى

ظلال المساء ، ويرفعون الانظار الى المكان الذى يرقد فيه الان . وبعد لحظات يعودون الى داخل القصر .. ويغلق الباب الكبير . ويتلاشى المنظر كله من خيال ريتشارد ..

وتنهد بارتياح وهو راقد على ظهره يبتسم للنجوم فى السماء

وراح ريتشارد لمدة أسبوع يعمل جاهدا فى البحث عن المكان الملائم لاقامة قصره الصغير وانشاء المزرعة · واستطاع أن يشترى المنطقة التى رآها وهو راقد فوق التل ليلة وصوله ·· المنطقة التى يرتفع فى جانب منها التل المكسو بالزهور ·· ويجرى فيها جدول عذب المياه ·· وبعد أن سجل عقد الشراء فى مونتريرى ، زار شركة للمبانى

واستغرق ريتشارد ستة أشهر فى بناء قصره الصغير وتزويده بالاثاثات والسجاجيد وأنابيب المياه المتصلة بالخزان المرتفع · وكان ريتشارد قد استأجر عددا كبيرا من العمال لاستكمال القصر فى أقصر وقت ممكن ، دون أن يحاول زراعة شبر واحد من المزرعة

وأقبل عليه أحد جيرانه الذين دهشوا لما يفعل ، وقال له :

ـ هل ستدعو أسرتك للاقامة هنا يا مستر هوايتسيد ؟

فرد هوايتسيد بهدوء :

ـ اننى رجل وحيد فى الحياة ·· مات أبواى منذ عشر سنوات ·· ولم أتزوج بعد

ـ اذن لماذا بحق السماء تبنى هذا البيت الكبير الشبيه بالقصر ؟

وارتسم الجد على وجه ريتشارد وهو يقول :

ـ اننى أنوى الاستقرار هنا ·· لقد جئت لأبقى · وسوف يعيش أولادى وأحفادى وأحفادهم هنا ·· فى هذا القصر · لسوف يكون هنا عدد كبير من أفراد أسرة هوايتسيد وستكون أسرة عريقة ·

وكاد يقول « كالاسرة الملكية » ولكنه كتم هذا الامر فى نفسه وأردف قائلا :

ـ أسرة تعيش هنا ·· وتتكاثر ·· ويموت منها من يموت ·· اننى أقدر لهذا القصر عمرا لا يقل عن خمسمائة سنة

وقال الجار :

ـ اننى أفهم ما تعنى · وهذا من حقك طبعا · ولكن الامور هنا لا تجرى على هذا النحو ، ان المزارع منا يبنى بيتا صغيرا أقرب الى الكوخ منه الى البيت ·· فاذا صلحت أحواله وأنتجت الارض

محصولا يبشر بالخير ، فانه يزيد غرفة أو غرفتين على بيته الصغير · وفى رأيى أن الانسان لا ينبغى له أن ينفق ثروة كبيرة فى بناء منزل قبل أن يتأكد تماما أنه لن يرحل عنه

فهتف ريتشارد قائلا :

ـ ومن قال لك اننى سأرحل عنه ؟ اننى أقيم هذا القصر حتى يمنعنى تماما من الرحيل · اننى أقيم هذا البناء القوى المتين حتى لا أستطيع أنا أو أبنائى من بعدى أن يتركوه ويرحلوا · وزيادة فى الاحتياط ، فسوف أدفن هنا عندما أموت · والناس عادة لا يتركون موتاهم ويرحلون

ولانت ملامح وجهه وأردف قائلا :

ـ هل فهمتنى الان ·· اننى أقيم أساسا لاسرة عريقة الحسب والنسب لتبقى الى ما لا نهاية ، وانما لعدة أجيال آتية على الاقل · وانى لاشعر منذ الآن بالبهجة وأنا أعلم أن أبنائى وأحفادى سوف يرتعون فيه ··

وكانت عيناه تتألقان وهو يتحدث ·· وكانت دقدقة الاعمال الختامية فى القصر تتجاوب مع حديثه · ولكن الجار أيقن فى قرارة نفسه أنه يتحدث مع رجل مجنون ! الا أنه شعر بالوفاء الذى يحسه الانسان عادة نحو رجل مجنون · ولولا أنه أمريكى · لرفع قبعته تحية له · ذلك أنه كان لذلك الجار ابنان يعملان فى قطع الاشجار فى غابة تبعد ثلاثمائة ميل ، وابنة متزوجة من رجل يعيش فى نيفادا · أى أن أسرته تشتتت قبل أن يجتمع شملها ·

أقام ريتشارد قصره من الخشب الاحمر المبخر المنيع الى التحلل أو التعطن أو التسوس ، وكان الطراز الذى اختاره ، هو الطراز السائد فى جزيرة نيوانجلاند أى طراز البيوت التى تقيم فيها الاسر المحافظة ذات التقاليد الخاصة · ولكنه أضاف الى هذا الطراز شرفة واسعة تحيط بالقصر كله ، كما صنع السقف بالآجر اللامع « القيشانى » الذى كان يتألق فى الجو الصافى الخالى من السحب، وكان هذا السقف هو مثار العجب والاعجاب فى الوادى كله ، حتى أصبح رمزا على أناقة القصر وجماله ، وجعل ريتشارد هوايتسيد المواطن الاول فى الوادى · وأكثر من هذا أصبح السقف من المعالم

التي يفخر بها السكان ويشيرون اليها للزوار • ولو كان لريتشارد مطامع سياسية ، لاستطاع أن يغدو من أبرز رجال السياسة في المنطقة بسبب هذا السقف !

وتم اعداد القصر في النهاية • وشرع ريتشارد في اعداد الحديقة والمزرعة للانتاج الزراعي • فاستأجر عددا من العمال الزراعيين وأخذ معهم يمهد الارض ويقسم الحديقة الى أحواض وبساتين ، كما اشترى قطيعا من الاغنام وتركها ترعى في سفح التل الاخضر الواقع وراء القصر • وبعد أن تم هذا كله ، رأى أن الوقت حان للزواج • وقد حان الوقت عندما جاءته رسالة من قريب له يخبره فيها أنه وصل الى سان فرانسسكو مع زوجته وابنته ، وأنه في شوق الى رؤيته • وأدرك ريتشارد أن الابنة هي زوجة المستقبل ، ومن ثم كان يعرف ، قبل ذهابه الى سان فرانسسكو ، أنه سيتزوج هذه الابنة أيا كانت الظروف • اذ يكفي أنها تمت اليه بسبب القربى ، وأنه لن يكون هناك اختلاط في الحسب والنسب !!

ولم يستغرق مشروع الزواج وقتا طويلا •• وقد رحبت الفتاة أليشيا بهذا الزواج حتى تنجو من سيطرة والديها واستبدادهما ، وحتى تبنى « مملكة » خاصة بها ، لقد أدركت حين رأت القصر كأنه أقيم من أجلها • انها لم تمكث فيه ، كزائرة ، غير يوم واحد حتى كانت تفرش أرفف المطبخ بالورق الملون ، وبنفس الطريقة التي كانت أم ريتشارد تتبعها في تزيين مطبخها • وبعد زواجها فكان الغسيل يوم الاثنين ، والمكوى يوم الثلاثاء وهكذا •• والسجاجيد ترفع وتنفض مرتين في السنة ، والمربات وعصير الطماطم والمخللات تحفظ وتخزن في قبو القصر • وازدهرت المزرعة ، وتكاثرت الابقار والاغنام ، أينعت ثمار الفاكهة ، وتفتحت الازهار ، وأعلنت أليشيا لزوجها أنها أصبحت حاملا !!

وكان ريتشارد يعرف أن هذا كله سيحدث •• ان أساس الاسرة العريقة قد توطد • وأن المداخن لترسل سحائب الدخان في الجو معلنة أن أعمال الطهو في القصر قائمة ومستمرة •• للزائرين •• وللعمال •• ولرب القصر • أما المتبغ الكبير « البايب » المصنوع من خشب الميرشوم ، والذي قدمه اليه حموه هدية زواجه ، فقد بدأ

لونه يتحول الى اللون الاصفر الصافى ..

وعند اقتراب موعد الوضع ، أخذ ريتشارد يعامل زوجته كأنها مريضة تحتاج الى المزيد من الرعاية ، فاذا جلس فى المساء بجوار المدفأة ، لف الثوب عليها بعناية ، وغطى قدميها بالفـــــراء ، وكان يشعر بأشد القلق خشية أن يحدث شيء للجنين . وكان يتبادل معها الحديث طويلا عن الصور الجميلة التى يجب أن تتطلع اليها دائما حتى يأتى المولود جميلا . واستقر الرأى على أن تديم النظر الى تمثال صغير للملك داود . ومع مرور الايام ، أصبحت موقنة بأن مولودها سيكون شبيها بالملك داود

وكان ريتشارد يجلس بجوارها ويمسح على كفهـــا مهـــدئا لاعصابها ، وكانت هى تحب أن يعرب لها دائما عن حبه القـــوى بهذه الوسيلة المهذبة ، ثم يحدثها بهدوء قائلا :

ــ لقد زالت اللعنة يا أليشيا .. انك تعرفين أن قومى وقومك عاشوا متباعدين ردحا من الزمان .. ولكن دماءنا عادت لتمتزج باعتبارها دماء نيوانجلاندية نقية . وقد أخبرنى أبى ذات مـرة أن بيت الاسرة الكبير فى نيوانجلاند شهد مولد ثلاثة وسبعين طفلا . وقد ظلت أسرتنا تتكاثر حتى عهد جدى . وكان أبى ابنه الوحيد ، وأنا ابن أبى الوحيد ، وهـــــذه هى اللعنة التى أحزنت قلب أبى كثيرا .. وقد مات وهو فى الستين من عمــــره فقط . ولما بلغت الخامسة والعشرين احترق بيت الاسرة وتفرق الجميع فى مختلف الولايات . ولا أدرى حتى الآن سبب اندلاع النار فى البيت الكبير الذى عاش مائة وثلاثين عاما ، وشهد مولد ثلاثة وسبعين طفلا

ووضع يدها على حافة مقعده برفق وكأنها يد انسان ضـعيف . وندت عن المدفأة جمرة ، فأعادها الى مكانها . وتناول يد أليشـــيا مرة أخرى ، وابتسمت هى برفق لتمثال الملك داود الموضـــوع على نضد بجوار السرير

واستطرد يقول :

ــ كان هناك تقليد متبع فى العصور القديمة ..

وأدركت أليشيا أن ريتشارد سيتناول فى حديثه موضـــوعا من أحب الموضوعات اليه . كانت عيناه متألقتين ووجهه يشرق عندما

يتحدث عن هيروزس أو اكسنوفان أو تيرسيديوز أو عن حـــروب الفرس أو معابد المصريين أو تقاليد الاغريق

وأردف يقول :

ـ نعم •• عندما تتوالى الهزائم وألوان سوء الحظ على أهــــل احدى المدن فانهم يعتقدون أنهم واقعون تحت لعنة أحــــد الالهة • ومن ثم فانهم يجمعون كل ممتلكاتهم المنقولة الى السفن ويرحلون الى مناطق جديدة • انهم يتركون مدينتهم القديمة خالية مهجـورة ومباحة لكل من يريد

وقالت له أليشيا :

ـ هل تسمح وتناولنى ذلك التمثال ؟ اننى أحب أحيـــانا أن أمسكه بيدى

ووثب ريتشارد ووضع التمثـــال الصغير فى حجرها • وهو يستطرد قائلا :

ـ اسمعى يا أليشيا •• لم يكن جدى قد أنجب غير أبى فقـط ، ولم ينجب أبى ابنا غيرى ثم احترق البيت • ولهـــذا وضعت كل ما أمتلكه فى سفينة ورحلت عن نيوانجلاند بحثا عن منتجع جديد • لقد احتـــرق بيتنا بعد أن عاش مائة وثلاثين عاما • ولم يكن فى مقدورى أن أقيم بيتا آخر فى نفس المنطقة والا شـــعرت دائمـــا بالمأساة ، ولما رأيت هذا الوادى • أدركت أنه موطنى الجـــديد والاساس الذى أنشىء عليه أسرة كبيرة تعيش جيلا بعد جيـــل •• وانك الان تحملين أول هذه الاجيال ، وانى لسعيد جدا يا أليشيا •

ومدت يدها وضغطت على يده شاكرة لانه جعلها تحس بقدرتهـا على اسعاده • عاد هو يقول مستطردا :

ـ بل لقد رأيت فألا حسنا وأنا واقف أفكر فى أن أجعل من هذا الوادى موطنا جديدا لاسرتى • رأيت هـــذا الفـــال الحسن فى الوقت المناسب •• هل أحدثك به يا أليشيا ؟

وتثاءبت أليشيا وقالت :

ـ حدثنى به غدا مساء ، ويحسن أن آوى الى الفراش الان

ونهض يساعدها فى رفع الاغطيـــة عن ركبتيها ، واعتمدت على

ذراعه بقوة ، ومضت تصعد الدرجات الى غرفات النوم وهو يقول لها :

ـ ان فى هـــذا البيت شيء خفى .. شيء عجيب رائع ، وكأنه يحمل الطابع الروحى لجيل جديد

وقالت أليشيا :

ـ لسوف يأتى ابننا شبيها بداود !

وبعد أن يطمئن ريتشارد عليها فى فراشها يعود الى غرفة الجلوس وكان فى مقدوره أن يسمع أحفاده وهم يدبون فى أنحاء البيت ، انهم يجرون هنا وهناك بأقدامهم الصغيرة ، ويحركون الجمرات فى المدفأة ، وانه ليسمع أصواتهم العذبة وهم ينادون بعضهم بعضا فى الشرفة . وقبل أن يعود الى البيت ، أعاد الكتب التاريخية الثلاثة الى مكانها فى أعلى المكتبة

وكانت عملية الوضع عسيرة جدا . ولما تمت ، تهالكت أليشا فى الفراش مرهقة ، وأحضر ريتشارد الطفل ووضعه بجانبها . وقالت هى :

ـ نعم .. انه يشبه الملك داود تماما . كنت أعرف هذا . ويحسن أن نسميه دافيد

وأقبل الطبيب من مونتريرى وجلس بجوار ريتشارد فى غرفة الجلوس ، وكان يبدو عليه القلق الشديد . وفتح ريتشارد زجاجة براندى وصب كأسين وهو يقول :

ـ فى صحة ابننا يا دكتور .. ابننا الاول ..

وتشمم الدكتور الشراب وقال :

ـ انه شراب جيد .. ماذا تعنى بقولك ابننا الاول

فنظر اليه ريتشارد مدهوشا وقال :

ـ طبعا سيكون لنا أبناء اخرون .. ستة على الاقل وثمانية على الاكثر

وقطب الطبيب جبينه وقال :

ـ أخشى أن تكون مبالغـــا بعض الشيء فى أحلامك يا مستر هوايتسيد

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لقد كدت أن تفقد زوجتك فى أثناء عملية الوضع
وغص ريتشارد بريقه وقال :
ـ لم أكن أعرف ـ نعم . لم أكن أعرف .. كنت أظن فقط أن الابن الاول يكون وضعه عسيرا ..
وقال الطبيب :

ـ أعطنى كأسا أخرى .. انك لن تنجب طفلا اخر
فهتف ريتشارد فى استنكار :

ـ هذا غير معقول .. لسوف يكون لى أبناء وأبناء ..

ـ قد يكون لك هذا .. ولكن من زوجة أخرى غير زوجتك الحالية انك ستفقدها تماما لو حاولت معها أن تنجبا ابنا اخر

وتسمر ريتشارد فى مقعده . وخيل اليه أن أصوات الاطفال الكثيرين فى البيت ، الاصوات التى كان يسمعها طيلة الشهر السابق قد انقطعت فجأة وساد البيت سكون عميق

وضحك الطبيب بمرارة وقال :

ـ لماذا لا تفقد وعيك بالخمر اذا رأيت أن الوقت يستلزم هذا !

ـ لا لا .. اننى لا أشعر بالرغبة فى السكر

ـ حسنا .. اعطنى كأسا ثالثة قبل أن أنصرف .

ولم يخبر ريتشارد زوجته بأنها لن تستطيع أن تنجب مرة أخرى . لقد أراد أن يتيح لها فرصة استرداد قواها تماما قبل أن يبلغها هذا النبأ المحزن . وبعد ستة أشهر ، ذهب اليها مترددا ليخبرها . وكانت تحمل ابنها فى حجرها وتداعبه وتمتص أصابعه. وكان الطفل يحملق فيها ويبتسم ويبسط أصابعه لها لكى تمتصها . وكانت الشمس تسكب ضوءها من النافذة العريضة .. والحقول المترامية تبدو ممتدة الى سفوح التلال

ورفعت الام رأسها وقالت لريتشارد :

ـ لم يحن الوقت بعد لكى نعمد الطفل يا ريتشارد :
ـ نعم . لقد حان . لسوف أتخذ الترتيبات اللازمة فى مونتريرى

وترددت برهة قبل أن تقول :

ـ هل فات الوقت الذى يمكن فيه أن نغير اسمه !

ـ لا ‧‧ لم يفت ‧ لماذا تريدين تغيير اسمه ‧ وما هو الاسم الذى تريدينه ؟

ـ أريد أن أسميه جون ‧ انه من أسماء العهد الجديد فى الكتاب المقدس

ثم توقفت برهة ونظرت اليه متسائلة قبل أن تردف قائلة :

ـ وعدا هذا فانه اسم أبى ، وسوف يبتهج أبى كثيرا لهذا ‧

ولم يحفل ريتشارد بهذا كثيرا ، ووافقها فورا على رأيها ، ثم اعترف لها بما قاله الطبيب ‧ وفوجىء بها تبتسم فى وداعة وصفاء ‧ ونظر اليها وهو فى حيرة ‧ وقالت هى :

ـ ان الاطباء كثيرا ما يخطئون ‧‧ لسوف يكون لنا أبناء كثيرون ‧‧ صبرا !

وغادر ريتشارد الغرفة وجلس على احدى درجات السلم ‧ وشعر مرة أخرى بالبيت يموج بالاطفال ‧‧ دبيب أقدامهم الصـــغيرة ، وأصواتهم العذبة وهم يتنادون فى الشرفة

***

وكانت أسرة هوايتسيد حتى ذلك الوقت قد صارت الاسرة الاولى فى الوادى الاخضر ‧ كانت أكثر الاسر ثقافة ، وكانت مزرعتهـــا أجمل المزارع ‧ وكانت أكثر نسبيا ، ثراء ‧ وأهم من هذا كله ، كانت تعيش فى دعة ورفاهية فى ذلك البيت الشبيه بالقصر ‧

وبسبب هذا القصر ، أصبح ريتشارد كبير سكان الوادى ‧‧ الرجل الذى يفض المنازعات ، ويحل المشكلات ، ويقدم النصيحة والعون ، وتطور هذا كله حتى أصبح يشعر أن شئون الوادى هى شئونه ، وأن السكان فخورون به

ومرت خمسة أعوام ‧‧ وشعرت أليشا أنها حملت للمرة الثانية ‧ وقال لها ريتشارد حين أخبرته :

ـ لسوف أستدعى الطبيب ‧ انه سيخبرنا ما اذا كان هذا الحمل فى مصلحتك أم لا

ولكنها منعته قائلة :

ـ لا ياريتشارد ‧ ان الاطباء لا يعرفون ‧ والام منا تعرف عن نفسها أكثر مما يعرفه الطبيب

وأطاعها ريتشارد ، لانه كان يخشى أن يعارض الطبيب فى اتمام الحمل • وقال مبررا هذا التصرف لنفسه :

ــ نعم •• أن الطبيعة جعلت المرأة أكثر دراية بنفسها حتى بتكاثر النسل

وسار كل شيء على خير حال • وبعد ستة أشهر ، مرضت الزوجة مرضا شديدا • وكان الطبيب فى حالة غضب شديد عندما قرر أن يقوم باجهاضها خوفا على حياتها • وجلس ريتشارد فى غرفة الانتظار بالمستشفى وهو يتشبث بمقعده كلما سمع صراخ زوجته • ولما خرج الطبيب يمسح العرق عن جبينه ، قال له :

ــ اطمئن •• ان زوجتك لم تمت وان كنت لا أدرى كيف احتملت آلاما لا يقوى على احتمالها عشرات الرجال ، يالهؤلاء النساء الضعيفات ان لهن حيوية الوحوش

وفجأة قرر أن يعاقب ريتشارد لانه خالف تعليماته فأردف قائلا :

ــ أما الطفل ، فقد مزقته اربا لكى أخرجه وأنقــــذ زوجتك من الموت ••

ثم انصرف وهو يشعر فى أعماق نفسه بالحزن الشديد من أجل ريتشارد

***

وعاشت أليشا مريضة مقعدة • ولم يكن جون الصغير يذكر متى رأى أمه آخر مرة وهى سليمة قوية الجسم • لقد شب وهو يراها على مقعد متحرك •• ضئيلة الجسم ، شاحبة الوجه ، يحملها أبوه من الطابق الاعلى الى الطابق الاول ، وبالعـــكس ، ولم تكن تكثر من الكلام • وانما كانت تواجه الحياة بابتسامة رضا واستسلام • ومع ذلك كانت تدير البيت على خير وجه بمساعدة فتيات من الريف كن يأتين للتدرب على الشئون المنزلية قبل الزواج ، وكانت أليشـــا من فراشها أو من مقعدها المتحرك تشرف على كل شيء

وكان ريتشارد يحملها كل مساء الى فراشها ، ثم يجلس بجوار السرير يمسح على كفها حتى تستغرق فى النوم ، وكانت فى كل ليلة تسأله قبل أن تنام قائلة :

ـ هل أنت راض عن حياتك يا ريتشارد ؟
فيؤكد لها أنه راض تماما ‥ ثم يروح يحدثها عن شئون المزرعة وعن سكان الوادى ٠ وكانت الابتسامة تنتشر على وجهها وهى تنصت الى حديثه حتى تنسدل أجفانها وتستغرق فى النوم

ولما بلغ جون العاشرة ، أقام ريتشارد له مأدبة دعا اليها أطفال الوادى ٠ وجاء الاطفال يجوسون خلال القصر وهم مبهورون بروعته وما فيه من ترف لم يروا مثله فى حياتهم ٠ وكانت أليشا جالسة فى الشرفة تقول لهم :

ـ العبوا وضجوا يا أولاد ‥

ولكن الاولاد كانوا فى رهبة من روعة القصر ، وكأنهم فى كنيسة وأخيرا انطلقوا الى المخزن الكبير حيث تعالى صياحهم وارتفع ضجيجهم

وفى تلك الليلة سألت أليشا زوجها كالمعتاد :

ـ هل أنت راض ياريتشارد عن حياتك ؟

وأجاب ريتشارد قائلا ووجهه متألق بانفعاله فى أثناء الحفلة :
ـ كل الرضا يا أليشا

ـ اذن انتظر قليلا ٠ لسوف تتحقق آمالك عن الابناء يا ريتشارد ، وسوف يصبح كل شىء كما ينبغى
ولما نظر اليها متسائلا ، ابتسمت وقالت :

ـ ان جون فى العاشرة ‥ وفى خلال عشر سنوات أخرى سيتزوج ويملأ البيت أطفالا ٠ ان الاسرة بخير ياريتشارد ‥ وسوف تتحقق أحلامك كلها

وأومأ ريتشارد برأسه وقال :

ـ نعم ‥ نعم ‥ وسأبدأ منذ الغد فى قراءة هيرودت له

***

وكان جون يتذكر دائما كيف اهتم والده بأن يقرأ له المجلدات التاريخية الثلاثة : هيرودت ، وتيوسيديدز ، واكسنوفون ٠ وكان المتبغ المصنوع من خشب الميرشوم الناخر قد تحول الى الاحمرار الصافى ٠ وكان أبوه يقول له :

ـ ان التاريخ كله فى هذه الكتب الثلاثة ٠ ان كل شىء استطاع

أن يسجله الانسان فى غابر الزمان موجود هنا ·· فى هذه الكتب · ان فيها الحب والحقد ·· والغدر الاحمق والشجاعة ، والنبل وقصر النظر وأحزان الشعوب وأمجاد الامم ، نعم يا جون ·· ان التاريخ يعيد نفسه دائما ، ولا يمكن أن يقع شىء الان أو فى المستقبل لم يقع مثله فى الماضى

ويتذكر جون كيف كان أبوه ينظر الى البيت باعتبـــــاره رمز الاستقرار والبقاء والامان

وكان جون فى اخر عام بمرحلته الجامعية بهارفارد عندما بلغـــه نبأ وفاة أبيه بالتهاب رئوى ، وكتبت أمه اليه تطلب منه أن يستكمل دراسته قبل أن يعود · وقد قالت فى رسالتها : « انك لن تستطيع أن تفعل شيئا الان ·· ان وصية أبيك الاخيرة أن تســـــتكمل دراستك الجامعية »

ولما عاد الى بيته أخيرا ، وجد أمه قد ازدادت مرضا وضعفا وبدت أكبر من عمرها كثيرا ، وأصبحت لا تفارق السرير · وجلس بجوارها ينصت اليها وهى تحدثه عن أيام أبيه الاخيرة :

ـ لقد أراد أن يخبرك بشىء واحد مهم · هو أن تستمر فى تحقيق أحلامه ·· أن تجعله يعيش فى أولادك وأحفادك جيلا بعد جيل ، ثم ازدادت عليه الحمى حتى صار يهذى

ونظر جون الى المزارع من النافذة بينما استطردت أمه تقول :

ـ لقد ظل والدك فى حالة هذيان لمدة يومين · ولم يكن خلالهما يكف الحديث عن الاطفال ·· لا شىء غير الاطفال · كان يسمعهم يجرون فى أنحاء البيت ويملئونه بالحياة · ومات وهو سعيد ·· مات وهو يقول بعد أن زالت عنه غشاوة الهذيان « اننى أرى المستقبل ·· لسوف يكون هنـــــاك أبناء كثيرون ·· اننى راض عن حياتى يا أليشا »

وأردفت أمه قائلة فى حزم :

ـ تزوج يا جون · أريد أن أراك زوجا وأبا ·· أريد أن تتزوج فتاة قوية تنجب لك عددا كبيرا من الابناء

وتراخت فى فراشها وقد امتلأت عيناها بالدموع

ولم يتزوج جون لمدة ست سنوات بعد حديث أمه معه • وازدادت الام جفافا حتى أصبحت جلدا على عظم • ولكنها ظلت متشبثـــة بالحياة ، وعيناها تتبعان جون فى عتاب • وكان يشعر بالخجل كلما رآها تنظر اليه على هذا النحو • وأخيرا جاء أحد زملائه فى الجامعة الى الغرب ومعه أخته • وأمضيا شهرا فى ضيافة جون هوايتسسيد بالوادى الاخضر • وفى نهاية الشهر تقـــدم جون الى ويللا ـ أخت زميله ـ طالبـــا يدها للزواج • ووافقت ولما أخبر أمه ، طلبت أن تنفرد مع الفتاة بعض الوقت • وكان وجه ويللا بعد هذا الاجتماع يضطرم بحمرة الخجل الشديد • ومن ثم قال لها جون :

ـ ماذا حدث ؟ ماذا قالت لك أمى ؟

ـ لا شىء •• لا شىء •• لقد ألقت على أسئلة كثيرة ، ثم تأملتنى طويلا •

ـ ان أمى عجوز ، وعقليتها عجوز مثلها

ثم دخل على أمه فرآها تبتسم فى رضا ، وقالت له :

ـ انها فتاة صـــــالحة يا جون • وانى أتمنى أن أعيش لأرى أولادك • ولكننى لن أستطيع • لقد تعلقت بحبال الحياة طويلا • وأشعر الآن بالتعب

وفى تلك الليلة غابت عن وعيها •• واستمرت الغيبوبة ثلاثة أيام ، ماتت بعدها فى سكون وهدوء وبدون أى احساس بالالم

***

ولم ينظر جون هوايتسيد الى البيت كما كان يفعـــل أبوه على وجه التحديد • ولكنه كان يحبه أكثر •• كان يشـــعر أن البيت هو غلاف جسمه الخارجى وكما يتمكن الفكر من الخروج من العقل والتجوال فى آفاق بعيـــدة ، كان هو يخرج من البيت ويبتعـــد ساعات أو أياما •• ثم يرتد عائدا ارتداد الفكر للعقـــل • وراح يعيد طلاءه الابيض مرة كل عامين ، وشرع يعنى بالحديقـــة بنفسه ، ولكنه لم يحتل بين سكان الوادى نفس المكانة الكبـــيرة التى كانت لأبيه • كان أقل من أبيه حزما ، وأقـــل ثقة فى كل شىء • ولكنه ورث عن أبيه المتبغ المصنوع من خشب الميرشـــوم الفاخر الذى تحول الى اللون البنى القاتم المرقط بدوائر حمراء •

وأحبت ويللا الحياة فى الوادى منذ اللحظة الاولى • وبينما كانت أليشيا تحب العزلة وتنفر من الاختلاط ، كانت ويللا على العكس ، تميل الى الناس ، وتحب التعرف بهم ، ومن ثم راحت تتبادل مع زوجات المزارعين الاخرين الزيارات وكانت تحب الجلوس فى مطبخ كلّ منهن وتشرب الشاى الثقيل وتتحدث فى مختلف الشئون المنزلية • ولعل نشاطها الاجتماعى هذا كان السبب غير المباشر لما وصل اليه جون من مكانة فى مجتمع الوادى الاخضر • لقد فقد قوة نفوذ أبيه التى اكتسبها بالتعالى والترفع وشموخ الرأس • ولكنه اكتسب محبة الاهالى وتقديرهم بالاختلاط وحسن المعاشرة وتأدية الخدمات لكل محتاج ، وكان فى أمسيات الصيف الدافئة يجلس فى الشرفة ويستقبل بعض الاهالى الذين يفرغون من أعمالهم • وكانت المناقشات تدور حول الشئون السياسية والاجتماعية والمالية • وكان فى كل يوم أحد يدعو للغداء قسيس الوادى مع أسرة من أسرات الجيران ، وكانت السيدات يساعدن ويللا فى اعداد الطعام بالمطبخ ، والرجال يجلسون فى الشرفة يتبادلون الحديث وتدخين المتابغ

أما مباهج جون الخاصة فكانت تتركز فى تلك الامسيات التى يجلس فيها مع زوجته بجوار المدفأة •• النار تشيع الدفء فى البيت الكبير ، وتبغ الميرشوم فى فمه يدخنه ، أو يده ينظفه ، وكتاب خاص عن الزراعة والفلاحة وزوجته ويللا جالسة أمامه تلوى شفتيها وتعمل بابرتها فى قطعة تطريز

وفى أمسية كهذه ، أغلق جون كتابه ، ونهض وسار الى مكتبه ذى الغطاء المتحرك ، وهناك جلس أمام أوراقه •• وقالت له ويللا :

ـ ماذا تفعل يا جون ؟

ـ أشغل نفسى بالكتابة

وبعد ساعة أو أكثر قليلا ، يستدير الى ويللا ويقول لها :

ـ اسمعى يا ويللا !

وقالت ويللا :

ـ كنت أتوقع هذا • قصيدة جديدة ؟!

ـ وتنصت ويللا الى القصـــــيدة فى صـمت ولباقة ٠٠ ويطول صمتها بعد أن يفرغ من القراءة ٠ وأخيرا يقول لها :

ـ انها لم تعجبك ؟

ـ لا ٠٠ ليست جيدة !

ويكمش الورقة ويلقى بها الى النار ثم يقول ضاحكا :

ـ ظننت برهة أنها ستعجبك

ـ ماذا كنت تقرأ يا جون ؟

ـ كنت أقرأ أشعارا لفرجيل ٠٠ وخطر ببالى أن فى مقدورى أن أنظم قصيدة ما ٠٠ والواقع أن كثرة قراءة الشـــعر تجعـــل الانسان متحمسا لنظم بعض الاشعار

وأعاد غطاء المكتب الى مكانه ، والتقط كتابا آخر من المكتبة

***

ورغم السعادة التى كانت تملأ قلب جون ، الا أنه لم يكف عن الرغبة فى أن يكون أبا ٠٠ لقد كانت نزعة الابوة فى أعماق نفسه لا تقل عما كانت فى قلب أبيه ٠ ولكن موضوع الانجـــاب كان يحرج الزوجين ، ولهذا لم يحاول اطالة الحديث فيه

وفى العام الثامن من زواجهما ، حملت ويللا ٠٠ ووضـعت فى الموعد المحدد طفلا قويا جميلا

ولم تحمل ويللا بعد ذلك ٠ ولكنها كانت مع زوجهـــا راضين كل الرضا عن هذا الابن الذى وهبه الله لهما ٠ وكان ظهور هذا الابن فى حياة جون دافعا لأن يزيد اهتمامه بالمزرعة وبالحـديقة بعد أن كان قد بدأ فى اهمالهما

ولم تتغير ويللا كما فعل زوجها ، وانمـــا نظرت الى الطفـــل باعتباره شيئا عاديا فى حياتها ، وسمته بيل ، رفضت أن تعيده ٠ ولكن جون كان يرى فى ابنه صورة لأبيه

وكان دائما يسأل زوجته :

ـ ألا ترين أنه ذكى ؟ انك تقضين معه من الوقت أكثر منى ؟ ألا ترين أنه سيغدو عبقريا

وتهز ويللا كتفيها وتقول :

ـ انه طفل طبيعى

ـ يبدو لى أنه ينمو ببطء • اننى أريد أن يكبر بسرعة ليفهم كل شئ

ولما بلغ بيل العاشرة ، تناول جون مجلدات هيرودت ليبدأ فى قراءتها على ابنه • وجلس بيل على السجادة ينظر اليه فى ذهـول ودهشة • وظل جون يقرأ لابنه بضع صفحات من الكتـــاب كل ليلة • وفى ذات ليلة رأى ويللا تضحك منه ، فقال لها :

ـ ماذا حدث ؟

ـ انظر الى ما تحت المقعد

ونظر الى أسفل حيث رأى بيل قد أقام بيتا من علب الثقـــاب الفارغة وكان مستغرقا فى عمله بحيث لم يشعر بأبيه حين توقف عن القراءة وقال جون :

ألم يكن ينصت الى !

ـ لم ينصت الى كلمة واحدة لانه لم يفهم كلمة واحدة • بعد أن قرأت له الاسطر الاولى

وأغلق جون المجلد وأعاده الى مكانه من المكتبة ، وأبى أن يتبين مدى ألمه النفسى ، ثم قال :

ـ لسوف ننتظر سنة أو سنتين ثم نحاول مرة أخرى

ـ انه لن يفهم شيئا من هذا • ولن يكون مثلك أو مثل أبيك

ـ اذن ما هى الاشياء التى سيهتم بها ؟

ـ الاشياء التى يهتم بها الاولاد مثله فى الوادى • مثـل البنادق والجياد والابقار والكلاب ، لقـــــد فر من يديك يا جون •• ولن تستطيع اللحاق به

ـ أخبرينى يا ويللا •• هل هو غبى ؟

ـ لا •• انه ليس غبيا • انه فى بعض النـــواحى أقوى منـــك احتمالا وأذكى عقلا • انه ليس على طرازك • ويحسن أن تعـرف هذا من الآن

وشعر جون بحماســته للمزرعة تخف • ان المزرعة فى حالة جيدة ، وسوف يعنى بها بيل يوما ما • وكذلك البيت فى أمان • وقد أثبت بيل فى حالات كثيرة أنه ليس غبيا • بل لقد تبــين أن له مقدرة خاصة فى الهندسة الميكانيكية ، اذ كان يصنع قطارات

صغيرة ، ومركبات ، وهدايا لأعيـــاد الميلاد ، ويطالب أباه بشراء قطارات بخارية صغيرة • ولاحظ جون جانبـــا آخر من نفســية ابنه • كان بيل يقوم بأعمال لا يبوح بها لأحد ، كما كان بارعا فى الشئون المالية ، اذ كان يبيع مقتنيـــاته للأولاد الآخرين ، فاذا سئموا منها ، استردها بأسعار منخفضة جدا • وكانت الهــدايا المالية تتضاعف فى يديه بوسائل خفية ، وقد حدث أن جون أهداه يوما عجلا •• فباعه بيل واشترى عددا من الخراف ، وبعد عـــام باعها بربح كبير !

وقد ضحك جون حين بلغه هذا الخبر وقال لويللا :

ـ انه أبرع منى بلا شك ، فقد حدث أن أهدانى أبى عجــــلا فاحتفظت به حتى مات بالشيخوخة !

***

وعاد جون الى مقعده بجوار المدفأة ، والى متبغه الميرشوم الجميل ، والى كتبه التاريخية ودواوين الشعر وانتخب ســـكرتيرا لمجلس ادارة المدرسة وعاد المزارعون يجتمعون فى غرفته للحديث ، ووخط الشيب رأسه ، وازداد نفوذه بين سكان الوادى مع ازدياد سنه

ولما أقبل برت مونرو الى الوادى واستقر به المقام ، لم يلبث أن أدرك مكانة جون هوايتسيد ، فأخذ يزوره مع المزارعين ، وكانت مزرعته متاخمة لمزرعة جون • وازدادت أواصر الصداقة بينهمـــا بصفة خاصة عندما تبين جون أن برت ، مثله ، يحب قراءة الكتب التاريخية ودواوين الشعر

وفى ذات مساء ، بعد انقضاء عام ونصف عام من اســـتقرار عائلة مونرو فى الوادى ، تقدم بيل الى والديه الجالسين فى غرفة الجلوس وقال بصوت حازم :

ـ اننى سأتزوج

وكان يتحدث بلهجة الانسان الذى يحمل للغير أنباء غير سارة • وصاح جون فى دهشة :

ـ لماذا لم تخبرنا من قبل ؟ من هى الفتاة ؟

ـ ماى مونرو

وتنهد جون بارتياح وقال :

ـ هذه أنباء سارة جدا ٠٠ وانى لسـعيد ٠ انها فتاة طيبة ٠ أليس كذلك يا ويللا ؟

وأطرقت ويللا برأسها ، لانها كانت تعرف النبأ ، وكانت فى زيارة آل مونرو فى ذلك الصباح ٠ ولكنها قالت لابنها :

ـ ومتى سيتم الزواج ؟

ـ فى أقرب فرصة ٠ بمجرد أن أنتهى من بناء بيتنا الصغير فى مونتريرى

ونهض جون واقفا ، وتناول المتبغ المبرشوم من فوق رف المدفأة وأشعله ثم قال :

ـ ولماذا لم تخبرنا أنك تبنى بيتا فى مونتريرى ؟

ولما لم يجب بيل ، أردف جون قائلا :

ـ هل ستذهب بعروسك للاقامة هناك ؟ ولماذا لا تقيم معنـا هنا ٠٠ هل فى هذا البيت ما يغضبك ؟

فرد بيل قائلا :

ـ لا ٠٠ ليس فى هذا البيت ما يغضبنى ٠ ولكن الحياة فيـه لا تلائم ماى

فلما رفع والده حاجبيه متسائلا ، قال بيل :

ـ لقد نشأت ماى فى مونتريرى ٠٠ وكل صديقاتها هنـاك ٠ وهى لا تحب الاقامة هنا ، لأنه ليس هنا ما تفعله

ـ آه ٠٠ فهمت

ـ ولهذا لما قالت انها تريد الحياة فى المدينة ، اشتريت نصف وكالة لبيع سيارات فورد ٠ وأنا دائمـا أحب هـذا النـوع من الاعمـال

وأومأ جون برأسه وقد بدأ شعوره الاول بالغضب ينحسر عن نفسه ثم قال :

ـ هل عرضت عليها الاقامة معنا هنا ؟

ـ انها تريد الاقامة فى المدينة حيث تعيش كل صديقاتها

حاولت ويللا أن تتدخل ، ولكن جون قال فى عزة واباء :

ـ حسنا يا بيل ٠٠ اننى لن أرجوك أو أتوسل اليك ٠ ولـكن ٠٠ هل لديك ما يكفى من المال ؟

ـ نعم يا أبى ·· لدى الكثير منه · وأرجو أن تقبل دعوتى لك ولأمى للاقامة معنا فى المدينـــة · ان البيت الذى أبنيه مكون من طابقين ، وسوف نخصص لكما الطابق الاعلى بأكمله ·

وابتسم جون فى حزن وقال :

ـ وماذا نفعل بهذا البيت اذا تركناه ؟

ـ يمكن أن نبيعه مع المزرعة بثمن ضخم ·· اننى على استعداد لبيعهما فى خلال أسبوع

وتراخى جون فى مقعده · وقالت ويللا لبيل :

ـ لو كنت واثقة بأنك ستصرخ ، لانهلت عليك ضربا بالعصا

وأشعل جون متبغه وقال :

ـ تأكد يا بيل أنك لن تمكث طويلا فى المدينة · لسوف تعـود الينا ان عاجلا أو آجلا

ثم راح يسحب الدخان من متبغه العتيق الفاخر ويردف قائلا :

ـ لسوف ننتظر عودتك هنا ونحفظ لك البيت نظيفا جيد الطلاء والحديقة مثمرة فى حالة طيبة · لسوف تعود يا بيل ·· ولسوف يلعب أولادك فى هذا البيت ويملئونه بالضجة والحياة ·· ســـوف ننتظر من أجل هذا وقد مات أبى وهو يحلم بالبيت مليئا بأطفـال من سلالته

ثم ابتسم فى خجل واستطرد قائلا :

ـ كدت أنسى أحلام أبى فى هذا الشأن

وغمغمت ويللا قائلة :

ـ ليتنى أستطيع أن أضربك يا بيل بالعصا

وانصرف بيل من الغرفة فى ارتباك · وقال جون لزوجته بعـد انصرافه :

ـ لسوف يعود الينا حتما

ـ نعم ·· نعم ·· بلا شك ·

ونظر اليها جون فى ارتياب وقال :

ـ هل تعتقدين هذا حقا يا ويللا ؟! أم أنك تواسيننى ! ان هذه المواساة تجعلنى أشعر بأنى طعنت فى السن

ـ اننى واثقة بما أقول · وأنا كما تعرف لا أطلق الكلام جزافا

وتزوج بيل فى ذلك الصيف ، وسرعان ما انتقل بعد ذلك الى بيته الجديد فى مونتريرى · وفى الخريف بدأ جون يشعر بالقلق والملل كما كان العهد به قبل أن يولد بيل · ولكنه راح يطلى البيت من جديد ، ويعنى بالحديقة أشد العناية

وقال ذات يوم لبرت مونرو :

ـ ان محصول الارض ليس كما ينبغى ، لقد أهملتها كثيرا ، وقد كان فى مقدورى أن أجعل محصولاتها تزداد عاما بعد عام

ـ نعم ·· ليس منا من يظفر من مزرعتـــــه بما ينبغى · وانى أتساءل لماذا لا تشترى قطيعا من الاغنام لترعى العشب فى ســفح التل الواقع وراء بيتك ؟

ـ كان أبى يفعل هذا · ولكننى كما قلت لك أهملت أرض التل ·· وأعتقد أن أعشاب الحلفاء قد تكاثرت بشدة فى هذه المنطقة

ـ اصرفها · اذا أحرقتها هذا الخريف ، فسوف تظفر بعشــب أخضر فى الربيع

ـ هذه فكرة طيبة · اننى لو تركت الحلفاء وأمرها ، لتكاثرت حول بيتى ·· انها اقتربت منه كثيرا · وسوف أحتاج الى مساعدة بعض الرجال لاحراق هذه النباتات البرية

ـ سوف أســـاعدك أنا وجيمى ·· ابنى · وأن لديك رجلين من العمال ·· وبهـــذا نكون خمسة رجال بك · فاذا بدأنا عمليـــة الاحراق فى الصباح عندما يكون الهواء راكدا ·· وبعد أن تمطـر قليلا ·· يمكننا أن نقوم بالعمل

وأقبل الخريف ·· وتساقطت أوراق الشجر ، وبدأت الامطار تتساقط رذاذا ·· وفى ذات صباح مشرق بعد ليلة مطيرة ، أقبل برت مع ابنه جيمى وحيا جون هوايتسيد ثم قال :

ـ أعتقد أن اليوم مناسب لاحراق نبات الحلفاء ·· كان المطـر أمس خفيفا وموافقا لمشروعنا

ـ حسنا جدا يا مستر مونرو ·· ولكن ·· ألا تفطران معى ؟

ـ شكرا ·· لقد تناولنا الافطار قبل أن نأتى

ومضى جون الى المخزن الكبير الواقع تحت البيت ، وكان بابـه يقع بجوار باب المطبخ الخلفى المواجه لسفح التلال · ومن المخزن

أحضر صفائح البترول ووزعها على الجميع • وكان العـــاملان فى فى المزرعة قد وصلا للاشتراك فى العملية

وقال برت :

ـ الهواء راكد لحسن الحظ • وسوف نبدأ الاحراق من أسفل الى أعلى أولا حتى نبعد الخطر عن البيت

وأشعل جون النار فى النبـــــات البرى المغموس بالبترول ، وأخذت النار فى أول الامر تسرى ببطء مع دخان كثيف ، ولكنها

لم تلبث أن راحت تتسابق فى التهام النبـــات البرى الذى كان يذوى ويتكسر قبل أن تصل اليه

وهبت رياح خفيفة على فجأة ، وتتطاير بعض النباتات المشتعلة نحو البيت • ولكن الرياح لم تلبث أن ركدت مرة أخرى كأنهـــا سهـــئمت هـــذا العبث ، واندفع الرجال الخمسة يطئون بأقدامهم الشرر المتناثر بينما كان جون يقول :

ـ من حسن حظنا أننا رأينا هذا • والا لاحترق البيت بسبب شرارة حمقاء !

وعاد الرجال يؤدون عملهم عند سفح التل • وفجأة ســـمع الجميع صيحة صادرة من داخل البيت • وكان البيت لا يكاد يرى بسبب سحائب الدخان المتصاعدة من الحلفاء المحترقة • وأسرع الرجال الخمسة نحو البيت وقد رأوا دخانا كثيفا يندفع من احدى النوافذ العليا

وكانت ويللا تجرى نحوهم ، فلمـا أمســك بها جون صاحت قائلة :

ـ لقد سمعت صوتا فى المخـــزن الارضى ، فلما فتحت بابه ، رأيت النار والدخان يندفعان منه ، فانطلقت هاربة • والنار الآن فى أنحاء البيت كله

وصاح برت قائلا :

ـ هل توجد خراطيم لاطفاء النار بجوار الخزان ؟

فهز جون رأسه وقال :

ـ لا أعتقد

ـ اذن هلم ننقذ ما يمكن انقاذه من متاع البيت

وهز جون رأسه وقال مرة آخرى بنفس الصوت :

ـ اننى لا أريد أن أنقذ منه شيئا

ـ انك مجنون

واندفع برت مع ابنه والعاملين نحو البيت • ولكنهم لم يلبثوا أن تراجعوا حين رأوا ألسنة اللهب تتـوهج فى جميع النـوافذ والابواب

وقال برت :

ـ ان البيت مصنوع من أجود وأصلب أنواع الخشب • ولـكن هذا النوع أصلح ما يكون غذاء للنار !

وجلس جون على كومة فى سفح التل • ونظرت ويللا الى وجهه ثم وقفت بجواره صامتة •• وراح البيت يشـتعل بزئير كزئير العاصفة ، ثم بدأت جوانبه الضخمة تتهاوى •• وظهـرت غرفة الجلوس وكأنها لم تمس بالنـار •• ولم تلبث ألسنة اللهب أن راحت تلفحها •• وشاهد جون كيف أخذت المقاعد الجلدية تنكمش فى ضوء اللهب وكأنها مخلوقات حية • وكان فى مقدوره أن يرى متبغه الميرشوم الكبير ملقى على الجـدار فى موضـعه •• ولكنه لم يلبث أن اختفى بين سحائب الدخان •• والنـار • وانهار البيت كله فجأة تحت وطأة سقوط سقفه الآجر الذى كان مفخرة سـكان الوداى

وعاد برت الى جون وقال فى ارتباك :

ـ لا شك أن شرارة تسللت الى المخـزن عنـدما هبت الرياح المفاجئة ! ولعل الشرارة اندلعت فى الفحم البترولى الموجـود بالمخزن

ورفت على شفتى جون ابتسامة شاحبة وقال :

ـ نعم •• لا شك أن الامر كما تقول

وأخذت النار تلتهم بهدوء ضحيتها بعد أن انتصرت عليها تماما• ووقف جون فى النهاية وشد قامته وألقى نظرة على رماد وبقـايا البيت الذى ولد فيه وعاش ، ثم قال :

ـ لقد انتهى كل شىء • وأعتقد أننى الان أعرف شعور الروح عندما تفارق جسدا محترقا •• لنذهب الى بيتك يا برت ، وسوف

أتصل تليفونيا ببيل ليعد لنا الطابق الاعلى من بيته

ـ لماذا لا تبقى معنا يا جون ·· ان بيتنا واسع ؟

ـ لا ·· سنذهب الى بيل ·· لقـــد أثبت أنه أبعد نظرا من جده ··

وابتسم فى مرارة وأردف قائلا كأنما يحدث نفسه :

ـ كان أبى يريد أن ينشيء أسرة عريقـــة كالاسرات المالكة ·· تتوارث الحسب والنسب جيلا بعد جيل ·· ولكن !

وأرسل ضحكة صغيرة ساخرة وأردف قائلا :

ـ ولكن ·· ما أصغر الاشياء التى تتحطم عليها كبار الاحلام !!

تمت